
حادثة شرف
يوسف ادريس
8

حَادثة شرف

حادثة شرف

مجمـــوعة قصص

يوسف ادريس

« الطبعة الثالثة » مكتبة

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

محطة

فى المحطة الأولى صعد الشاب ــ واحد من شبان هذه الأيام ــ القميص « نص كم » ومفتوح مع أننا لا نزال فى الشتاء ، وشعرات الصدر القليلة بارزة من فتحته ، والبلوفر مخلوع ومربوط من أكمامه حول العنق ، والسلسلة إياها تارة ملفوفة حول ساعده وأخرى دائرة بين أصابعه ، ونوت المحاضرات راقدة فى إهمال تحت إبطه ..

وفى المحطة التالية صعدت الفتاة ــ واحدة من بنات هذه الأيام ــ نحيفة قمحية ، حتى ابتسامتها قمحية ، شعرها ذيل حصان ، وصدرها لم يبلغ بعد حب الرمان ، ولكن (السوتيان) تكفل بإنضاج حب الرمان . وكانت تمسك فى يدها مندوب العائلة ــ أخاها الصغير ــ الموفد لا بد لحراسة الحمل النحيف من قطعان الذئاب .

وأتوبيساتنا مزدحمة ودائما مزدحمة ، حتى ليخيل لى أننا لا نعتبر ازدحامها مشكلة ، ولكننا نعده مفخرة قومية كالأهرام وأبى الهول سنظل نحتفظ بها إلى أبد الدهر .

وكان الأتوبيس مزدحما .. ومزدحما بالرجال الكبار ، كلهم يرتدون السترات الغامقة وأربطة العنق الوقورة . الجالسون جالسون فى أدب واتزان ، والواقفون واقفون رغم تلاصقهم وازدحامهم فى جد وحزم ، حتى حين كان الأوتوبيس يهوى بالواحد منهم ويجعله يتأرجح كالدائخ ذات اليمين وذات اليسار ، كان يفعل هذا فى جد ووقار أيضا وبوجه صارم الملامح والقسمات .

والسيد الجالس بجوارى كان هو الآخر من هذا الصنف الوقور الحازم ، بل كان واضحا أنه أكثر الركاب جدا ووقارا إذ كان هو الوحيد الذى يرتدى بالطو فوق بدلته ، مع أن الصباح كان جميلا مشرقا يغرى الإنسان بالمشى عاريا تحت أشعة الشمس .

وحين صعد الشاب صعد مبتسما ، ولكن أحدا من الرجال الكبار لم يعبأ به أو بابتسامته .

وحين صعدت الفتاة صعدت مبتسمة ، ورمقها الرجال الكبار ذوو السترات بنظرات سيئة النية ، ولكنهم اطمأنوا حين وجدوا أنها فى أعمار بناتهم أو دون ذلك وأنها لا تصلح للفراش بل لا « يليق » أن ترى مع أحدهم فى الشارع ، ولهذا سرعان ما صرفوا النظر عنها وعن ابتسامتها .

ولكن جارى أعلن رأيه بصراحة ، فقد شعرت به يتململ داخل البالطو حين صعدت الفتاة وما لبث أن عقد ملامحه وقال فى شبه غمغمة مستنكرة :

ـــ ودى إيه اللى يخليها تركب فى الزحمة دى كمان .. قلة أدب !

وكدت أنا الآخر أصرف النظر عنها لولا أن حدث شىء ، نفس الشىء الذى يحدث كلما صعد إلى عربة الأوتوبيس راكب جديد . فقد تقلقلت صدور واصطدمت بطون واستعملت الأكتاف للمرور ، وتبودلت كلمات الاعتذار بالإنجليزية والفرنسية والعربية والبلدية ، وحدثت حركة تنقلات وترقيات بين أصحاب الأمكنة وحاول كل منهم أن ينتهز الفرصة ويحتل المكان الذى طال حلمه به .

وكان من نتيجة تلك الحركة أن جاءت وقفة الشاب الصغير بجوار الفتاة الصغيرة ، وجاءت وقفتها بجوار المقعد الذى أحتله أنا والسيد جارى .

ورمق كل منهما الآخر بنظرة سريعة لا هدف لها ولا معنى .. لم تغير من الابتسامة التى صعد بها كل منهما ، بل لم يلحظها أحد من ركاب العربة .

وكنت قد عانيت الأمرين من السيد جارى . فمنذ أن جلس بجوارى وهو لم يكف أبدا عن الحركة ولا عن التعليق ولا عن إعطاء الأوامر الخاصة للسائق حين تدخل العربة فى مأزق ، أوامر يقولها بينه وبين نفسه : اطلع يا جدع . خد يمينك . سواق نيله .

وأنا لا أحب أن ينادينى أحد بكلمة السيد لست أدرى لماذا . تصور اسمك مقرونا بلقب السيد حتما ستحس أن شيئا فيك قد تغير أو تجمد ، أو أنك أحلت مثلا إلى الاستيداع . ولكن هناك أناس تحس أن لقب السيد فلان يناسبهم جدا . وكان جارى من هذا الصنف ، لا تملك حين ترى طربوشه وتكشيرته ومعطفه والشعر الأبيض فى ذقنه الذى يحلق يوما بعد يوم إلا أن تقول له يا سيد .. وإن لم تقلها له غضب ، ولهذا فهو الذى يبدؤك باللقب حتى لا تنسى أن تعيده إليه إذا حادثته .

كان واضحا أنه يحب الأصول .. والأصول ألا يأخذ الناس على بعضهم بسهولة . ومع هذا فمنذ أن جلس بجوارى وهو لا يعاملنى بالأصول أبدا ، فقد احتل وحده أكثر من ثلثى المقعد ومع هذا ظل كوعه مغروزا فى جنبى يكاد يخرق حجابى الحاجز ، وكان قد قرأ من جريدتى أضعاف ما قرأته منها ، وحين قررت حلا للإشكال أن أعطيها له ألقى عليها نظرة سريعة ثم طواها وردها لى ، وما كدت أفتحها حتى وجدت وجهه يتسلل من فوق كتفى ويعاود القراءة ولعله لمح فيها دواء مقويا « للأعصاب » . ثم إن عينه لم تغفل عنى لحظة ، حدق فى وجهى مرات

ربما ليرى إن كنت أحمل شبه إحدى العائلات التى يعرفها . وحين أخرجت محفظتى لأدفع جرد كل محتوياتها بنظراته الجانبية واشمأنط حين وجدها شبه خالية ، حتى حذائى لم يسلم من تحديقاته ربما ليعرف إن كان نعله جديدا أو ليدرك نوع جوربى وحالته الداخلية ، ومن كثرة خجلى أدخلت قدمى تحت المقعد لأريحه وأريح نفسى .

ولم ينقذنى من نظراته إلا مجيء الشاب الصغير والفتاة الصغيرة فقد تركنى وتحول إليهما .

ولأننى كنت بعيدا عن النافذة لم يعد أمامى لكى أقطع الوقت إلا أن أنظر فى وجوه الركاب . ولم تفلح هذه التسلية لقطع أى وقت فقد كفتنى نظرة واحدة إلى الوجوه لكى أدرك أنها نسخ متفاوتة الإتقان من جارى العزيز .. وهكذا لم يعد أمامى إلا أن أراقب الشاب الصغير والفتاة الصغيرة .

وبدأت أجد فى مراقبتهما تسلية عظمى .

فقد لمحت ابتسامة الشاب الطبيعية يرتجف سطحها قليلا قليلا ويتغير شكلها ويصبح لها معنى خاص مضى يمسح به وجه الفتاة وشعرها وجسدها وحتى ملابس أخيها الصغير .

المسألة فيها إعجاب إذن .

وكان إعجابا ، مجرد إعجاب غير موجه إلى الفتاة بعينها ، ولكن إعجاب أى شاب صغير بأى فتاة صغيرة ..

ولكن الأمور بدأت تتطور .

فقد اتسعت ابتسامته حتى شملت وجهه كله ، وبدأت السلسلة تضطرب فى يده وأصابعه تتجاذبها بلا وعى وفى عصبية .

وقلت فى نفسى : عظيم ! إنه يريد أن يكلمها .

وأن ينظر الشاب إلى فتاة مسألة سهلة ، وأن يبتسم لها مسألة أسهل ، أما أن يكلمها فتلك هى المشكلة .. المشكلة التى شغلت جيلنا كله أيام أن كنا طلبة فى الكليات وشبانا حديثى التخرج . كنت لا تجد شابا منا إلا ولديه مشكلة من هذا النوع ؛ وكل يوم ينتحى بك صديق من أصدقائك ركنا ويسوق مقدمات طويلة ويدعى أول الأمر أن المشكلة خاصة بشاب آخر ، ثم ينفجر فى النهاية قائلا : أحبها يا أخى وأعبدها ، وهى جميلة وأراها كل يوم وترانى ، وأجلس بجوارها فى المدرج أو فى الأتوبيس وابتسم لها كثيرا ، وأحيانا يخيل إلىّ أنها تبتسم لى فدبرنى ماذا أصنع ؟ ..

وتجد أن الحل فى غاية السهولة فتقول :

ـــ كلمها يا أخى كلمها .

ولا بد أن يضحك مستشيرك ضحكة هستيرية مغتصبة ويقول :

ـــ وجبت إيه من عندك ؟ ما أنا عارف .. إنما ازاى .. ازاى أكلمها ؟!

ولا تظن أن مستشيرك هذا قد فتح صدره لك وحدك باعتبارك صديقه الحميم ، فلست إلا واحدا من عشرات وربما مئات حدثهم وكاشفهم وخبط رأسه فى الحائط أمامهم وهو يقول :

ـــ المشكلة كيف أكلمها ؟

وتظل المشكلة معلقة شهورا طويلة وربما سنين . أحد زملائنا ظل يحب زميلة له خمس سنوات بأكملها دون أن يجرؤ على مخاطبتها ، وحين جمع شجاعة الدنيا وذهب يحادثها ألقىَ على مسامعها الجمل الخمس التىْ

كان قد جهزها ، ثم استأذن منها وغادرها فى الحال حتى قبل أن تفتح هى فمها وترد .

ونفس الوضع لدى الفتيات ولكنهن لا يملأن الدنيا غويلا وصراخا كما يفعل الشبان . هن يصمتن على نار والمشكلة تحيرهن وصدورهن العذراء تحترق احتراقا داخليا لا تطفئه دموع ولا تنهدات ، وتؤججه الأغانى والروايات . وكل جنس يريد الآخر ويراه ويلمحه ، وليس بينه وبين الآخر مسافة .. ومع هذا فهناك حائط زجاجى سميك لا يدرى أحد من أقامه ولا يجرؤ أحد على كسره .

ولكن جيلنا أفاق .. فوجدنا إخوتنا الصغار وأطفال جيراننا وأولاد المعارف ، قد استطالت أجسامهم فجأة واخضرت شواربهم وكشفوا الصدور والسواعد وبدأت أصواتهم تتغير ، وبدأت إذا حاولت أن تمنع الواحد منهم عن مناقشتك قال لك :

— إزاى ؟ أنا مش عيل .. أنا راجل زيى زيك .

* * *

وكان الشاب لا يزال يبتسم فى غموض وحيرة ويحرك رأسه ليأخذ وجهه أوضاعا مختلفة ، وينظر إلى قدمه مرة ثم يسرح فجأة ويتأمل سقف العربة ، ويمسك بعامود الأوتوبيس ويقبض عليه بشدة ويتململ محرجا ويعود ينظر إلى الفتاة تلك النظرات الخاصة .

وابتسمت .. كان الشاب الصغير واقعا فى نفس المشكلة التى لم نجد لها حلا . ترى هل لم يجدوا لها هم الآخرين حلا ؟ ارتباك الشاب واضح ، وأتحداه إن كان يستطيع أن ينجح فيما فشلنا فيه .

كان لا يزال يحاصرها بنظراته ورغباته الخرساء ويحاول أن تلتقى أعينهما ليكلمها بعينيه . وكانت الفتاة واقفة بجواره تماما ولكنها لم تكن تنظر إليه .. كانت عيناها مركزتين على رأس أخيها الصغير . ومع هذا كانت تبتسم بطريقة ما ابتسامة تحس معها أن الفتاة وإن كانت لا ترى نظرات الشاب الموجهة إليها وتدعى أنها لا تحفل بوجوده ، ومع ذلك تحس من الطريقة التى تبتسم بها أنها تدرك وجوده وتشعر أنه يحاصرها بنظراته وأنه حائر مرتبك متردد ، وكان لها ألف عين غير مرئية تنقل لها بطريقة خفية كل ما يحدث عن كثب منها .

وبدأت أنفعل وكأنى أشاهد مباراة للأشبال .

وبدأ قلبى يدق ويتمنى أن يبقى كل شيء على ما هو عليه ، وأن يبقى الشاب مرتبكا مترددا .. وأن تبقى الفتاة صامدة كالقلعة الحصينة حتى ولو لم تكف عن ابتسامتها التى لم يكن لها أى مكان فى أتوبيس مزدحم كهذا .

واكتشفت أننى لست وحدى الذى يشهد الصراع فقد التقت نظراتى المتلصصة بنظرات السيد جارى وهى تؤدى نفس المهمة . وطبعا كان اللقاء مخجلا لكلينا ، وعقد جارى ملامحه حتى أصبحت أكثر جدية وخطورة وادعى أنه ينظر أمامه نظرات دوغرى لا يمكن أن يلومه عليها أحد . ولم يمنعه هذا طبعا من أن يحرك عينيه فى محجريهما خلسة ليشهد ما يدور هناك . وكذلك لم يمنعنى خجلى من أن أجعل نظراتى تسترق الخطى هى الأخرى فى دوريات استطلاعية متقاربة .. كنا فقط نتحاشى أن تلتقى أنظارنا ، وإذا التقت — لسوء الحظ — طلى كل منا وجهه بقشرة سطحية مبتسمة وادعى أنه فقط ينظر ببراءة إلى وجه الرجل الأفطس الواقف قريبا من الشاب والفتاة سابحا فى ملكوت من صنعه .

ظللت أنا و جارى نلعب لعبة « الاستغماية » هذه حتى حدث شيء .

فقد وقف الأوتوبيس ثم تحرك .

وكعادة الأوتوبيس إذا وقف ثم تحرك أن تحدث الاصطدامات التى لا بد منها بين كل جار وجار ، والتقت الوجوه مبتسمة ومعتذرة .

وكذلك التقى وجه الشاب بوجه الفتاة وابتسم الشاب معتذرا .

وقبلت الفتاة اعتذاره باسمة .

وازدادت حركة الشاب ، حتى حذاؤه كان يتحرك بتردد وعصبية وكأنما يحاول أن يجد له مكانا بين الأحذية الضخمة الكثيرة المتراكمة حوله ، ولم تكف عضلات وجهه عن التغير .. تنقبض وتنبسط وترتجف ، وأحيانا يبتسم فجأة بلا سبب ثم يلتفت إلى الفتاة وكأنه يهم بعمل شيء ولكنه سرعان ما يرتد وبه بعض الشحوب .

والفتاة كانت قد أمسكت بيد أخيها الصغير بعد أن كان هو الذى يمسك بيدها ، وراحت تضغط عليها ضغطات منتظمة بينما وجهها قد اتخذ زاوية معينة لا يحيد عنها .

أما جارى فقد راح يتأفف من الحر ، ولكن يبدو أنه أحس بأن الأمور سوف تتطور حالا فقد ترك خجله منى جانبا واستدار بوجهه كلية إلى حيث يقفان .. ولم يرفع عينيه منذ تلك اللحظة عنهما أبدا .

وعلى حين بغتة استدار الشاب مرة وحمل وجهه ظرفا كثيرا ، وأعاد اعتذاره إلى الفتاة عن الصدمة السابقة فى همس خافت بدا كأنه نجوى .

ولم ترد الفتاة هذه المرة .. ولكنها خفضت رأسها واحمر وجهها .

وازداد اضطرابى .

وازداد أكثر حين عن لأحد الركاب الواقفين وكان سمينا ذا كرش عظيمة أن يغير من وقفته ، فتحرك حتى أصبح جسده الضخم يحول بيننا وبينهما . وكان اضطراب جارى أفظع .. ورحنا نحن الاثنين نصوب للرجل وكرشه نظرات نارية ملتهبة تكاد تخرقه أو تذيبه لكى نستطيع العودة إلى متابعة المشهد .

ويبدو أن الرجل أحس من نظراتنا أننا نتهمه بتهمة أبشع من مجرد التستر ، فقد وقف محرجا مرتبكا لا يدرى ماذا يفعل ليرضينا .. وسرعان ما خف الجار إلى نجدته فقال له بصوت جاد آمر :

ـــ ما تتفضل حضرتك تخش جوه فيه وسع جوه .. اتفضل جوه مضايق نفسك ومضايق الناس ليه ؟ ما دام فيه وسع نضيق على نفسنا ليه ؟ .

وتحرك الرجل وهو يشكر للجار نصيحته ..

وعدنا إلى مسرح الأحداث وعاد وجه جارى يحفل بالاستمتاع والنشوة .

وخفت أن أكون قد عدت متأخرا كثيرا .. ولكن حمدا لله ! كل ما كان قد حدث أن الفتاة قد رفعت رأسها وأن الشاب كان قد مد ذراعه اليسرى ليمسك عامود الأوتوبيس ، فأصبحت ذراعه لصق شعرها .

ولمحت فمه يرتجف .. لا بد أنه يجرب كلمات ما قبل أن ينطقها . وأحسست بالارتياح .. هكذا كنا نفعل . ولكننا كنا حين نوجد فى حضرة الفتاة تتسمر الكلمات على أفواهنا ولا تنطق .

ولكن الشاب هز نفسه وقال فى همس ملح :

ـــ أنا شفت حضرتك فى الجامعة .. فى الآداب ؟ مش كده .

وما كاد ينتهى من آخر كلماته حتى كان وجهها فى حالة غضب كامل وحتى كانت قد استدارت إلى الناحية الأخرى فى اشمئزاز ظاهر . بينما راحت يدها تتابع ضغطها على يد الأخ الأصغر ، والمسكين يحاول أن يخلص يده من يدها بلا فائدة .

وصحيح أنى لم أسترح إلى الطريقة التى غضبت بها ، فقد غضبت بسرعة غير عادية وكأنها كانت تتوقع أن تحدث محاولة كهذه . ثم لماذا تلك الضغطات العصبية على يد مندوب العائلة ؟

ومع هذا رحت أرمق الشاب الصغير فى شماتة وتوقعت أن وجهه لا بد أن يحفل حالا بالبياض والعرق ، ففى أمثالى هذه المناسبات كانت صدمتنا تمتد إلى أسبوع وربما أكثر .

ولكنى لم أجد فى وجهه شحوبا ما ولم أجد نقطة عرق باردة واحدة ، وجدت ابتسامته لا تزال كما هى وكل شىء فيه كما هو ، وكأنه هو الآخر كان يتوقع هذه الغضبة الأولى . وقلت لنفسى لا بد أنه من الصنف البارد التلم ، ولكنى أدركت أنى ظلمته فلم يكن يبدو عليه برود أو تلامة . كان شابا عاديا جدا لا تحس به جريئا ولا خائفا ولا واسع الحيلة أو قليل الدهاء .

وفى أيامنا كنت تقتلنا ولا نستطيع أن نكرر المحاولة ، وكنا لا نعمل شيئا طوال أيام كثيرة إلا أن نستعيد دقائق ما حدث فى المحاولة الأولى .. ونهوى إلى آبار خجل لا قرار لها ، ونظل نؤنب أنفسنا ونلعن من أشار علينا ونسب الدنيا والحظ وأحيانا نفكر فى الانتحار .

أما الشاب الصغير فقد اقترب مرة أخرى منها وهمس فى إلحاح جديد :

— الله ! مش المدموازيل فى الآداب ؟

ولم تتحرك شعرة واحدة فيها وكأنها لم تسمع .

وبدأت أتفاءل .

ولو كنت مكانه لهبطت من الأوتوبيس فى الحال ، ولظللت أهيم على وجهى فى الشوارع حتى أنسى مرارة الفشل . ولكنه قبل أن يختفى صدى الجملة الثانية كان قد اقترب بوجهه من وجهها للمرة الثالثة ، اقترب كثيرا وهمس فى عصبية :

ــ حضرتك رايحه هناك ؟

وظل رأسها ثابتا فى مكانه ووجهها ثابتا على وضعه ونظراتها مركزة على رأس الأخ الأصغر . شفتاها فقط اشتد ضغطها عليهما حتى برزتا إلى أمام فى شبه احتقار . وصحيح أنى كنت أتوقع من فتاة غضبت فى أول محاولة أن تصنع شيئا أكثر من هذا فى ثالث محاولة ، ولكن من الطريقة التى ضغطت بها شفتيها أحسست أن صبرها قد فرغ وأن الويل له لو حاول مرة أخرى .

وحاول ، اقترب منها كثيرا وكادت السلسلة تنقطع فى أصابعه وهو يهمس بسرعة وفروغ صبر :

ــ لازم رايحة البيت ؟

وكتمت أنفاسى فى انتظار النتيجة .

وبدا أنه فشل فى هذه المرة الأخيرة أيضا ، لولا .. لولا ذيل الحصان اللعين فقد لمحته يهتز ، خيل لى أول الأمر أنه يهتز اهتزازا طبيعيا ولكن أبدا كان اهتزازه عن عمد وعن سبق اصرار ، وكانت تقول له :

ــ أيوه .

وفى الحال وقبل أن تغير رأيها قال بسرعة وانتصار :

— فى الجيزة مش كده ؟

وقالت هذه المرة بلسانها وقد انتقل الخجل من وجهها إلى ابتسامتها :

— أيوه .

وكدت أوجه لكمة إلى رأس مندوب العائلة الذى كان واقفا يتفرج على الشارع من خلال النافذة فى بلاهة منقطعة النظير .

ولكننى لم ألبث أنا الآخر أن رحت أتطلع مثله ، وقد تركت جارى العزيز مستغرقا فى المشهد الذى يدور أمامه دون أن ينبس بحرف ووجهه لا يزال يحفل بالنشوة والمتعة !

وحين عدت من رحلة يأسى كانت الأمور قد تطورت بسرعة ، وكان الشاب يحادثها بصوت الواثق من نفسه .. بصوت الرجل الظافر حين يهتك حجب الخجل عن أنثاه فى إصرار .

وكانت قد تركت يد الأخ الأصغر وراحت يدها اليسرى تقضم أظافر اليمنى وتعبث بها بينما الأخ يحاول أن يجذب يدها ليعود يمسكها بلا فائدة ، وكان ذيل حصانها يهتز باستمرار اهتزازات أفقية ورأسية وبيضاوية ودائرية ، وأحيانا يرتعش .. فقط يرتعش ، شعراته المنضمة إلى بعضها فى حزمة ترتعش وتتباعد قليلا ثم تعود إلى الانضمام .

ولم أعد كثير الحماس لسماع مايدور بينهما . جارى كان هو المتحمس ، وكان من فرط حماسه قد مد رقبته على آخرها حتى كادت تصبح له أذن عند فم الفتى وأخرى عند فم الفتاة .

وحين عدت كان الشاب يتحرك كمن يستعد للنزول ، فقال لها وكل عضلة فى وجهه وذراعيه تنتفض وتشجعها :

— خلاص ؟

واهتز ذيل الحصان اهتزازات رأسية كثيرة متلاحقة .

وعاد وهو يقول :

ـــ أوعى تنسى النمرة .

واهتز ذيل الحصان اهتزازات أفقية تنفى بها .

ـــ طب كام ؟

وواجهته بعيون مرتعشة وقالت :

ـــ مش ٨٩٩ ؟

ثم سكتت وخجلت وأطرقت وبسرعة عادت تقول :

ـــ ٨٩٩٥٩٢

وتهلل وجهه فرحا وكاد يعانقها قائلا :

ـــ برافو ! إيه ده ؟ دا انت هايله .. ح تكلميني امتى ؟!

ـــ يمكن بكره .

ـــ لأ النهارده .

ـــ أما اشوف .

ـــ النهارده .

ـــ طب النهارده .

وخيل إلى أنه يكاد لولا الناس يقبلها ، بل لم أستبعد أن يفعلها فقد كان واضحا أنهما لا يحسان كثيرا بكل ما حولهما .

وقال الشاب هامسا :

ـــ بس حاسبي ، أخويا صوته شبهي تمام .. أوعى تغلطي فيه ابقى اتأكدي اني أنا اللي برد .

ـــ أتأكد ازاي ؟

ـــ لما اقول انا أحمد ردى .

ـــ اسمك أحمد .

ـــ أيوه . وانتى ؟!

وأطرقت وارتفع ذيل الحصان فى الهواء كثيرا وكأنها ترفع راية الخجل ، وغمغمت باسم لا يمكن أن يسمعه أحد ولكن الولد لقطه وسمعه ، عرفت هذا حين قال :

ـــ اسمك حلو قوى .

ثم أردف بجرأة :

ـــ زيك .

وسحب جارى رقبته الممتدة بسرعة وكأنما لسعته ولعة سيجارة أو كأنما أحس أن الشاب يغازله هو ، غير أنه لم يلبث أن أعاد رأسه إلى وضعه فى الحال حتى لا تفوته كلمة .

وكان الأوتوبيس يستعد للوقوف فى محطة الجامعة وكان الشاب هو الآخر يستعد للنزول ، وقبل أن يأخذ طريقه إلى الباب همس :

ـــ لولا المحاضرة مهمة كنت وصلتك . خلاص ؟

ـــ خلاص .

ـــ النهاردة ؟

ـــ النهاردة .

ـــ فاكره النمرة ؟

ـــ مش ح انساها .

ـــ طب كام ؟

وخجلت من نفسى وأنا أحاول أن أنافس الفتاة وأجهد ذاكرتى لأتذكر الرقم ، ولكنى فشلت .

وقالت الفتاة بسرعة وكأنها جهاز تسجيل :

— مش ٨٩٩٥٩٢

وقال الشاب فى انبهار :

— برافو ! أنا ح اقعد طول النهار جنب التليفون .. أوريفوار .

وتدفقت الدماء إلى وجنتيها ترد .

وهبط الشاب وبشعاع واحد من عينيها ودعته واطمأنت على جمال مشيته ، ثم عادت يدها تتسرب فى وهن وهيام وتسمح ليد الأخ الأصغر أن تقبض عليها وتفعل بها ما تشاء .

ولست أدرى كيف أدركت وهى فى قمة حالتها هذه أن محطتها هى التالية ، فقد وجدتها بعد قليل تجذب يد أخيها وتأخذ طريقها إلى الباب .

وما كاد جسدها النحيل يختفى فى الكتلة البشرية المتزاحمة قرب الباب حتى أفاق جارى من نشوته فى الحال ، وما لبث أن ارتفع صوته وراح يضرب كفا بكف وينظر إلى بقية الركاب وكأنما يستنجد بهم ويشهدهم ، ويقول فى غضب حقيقى :

— أما كلام فارغ صحيح وقلة أدب ! البلد خلاص باظت .. انفلت عيارهم .. إيه ده ؟ لازم يوقفوا فى كل أوتوبيس عسكرى من بوليس الآداب ، لازم يقاومهم زى ما بيقاوموا النشالين . دى مسخرة دى .. دانا شايفه بعينى بيمد إيده عليها . مش كده يا أستاذ ؟ والله لولا نا كان مد إيده عليها وهى ساكته . دا إجرام ده .. مفيش بوظان بعد كده . دانا سامعه بودنى بيديها نمرة تليفونه .. بودنى . كده واللا لأ يا محترم ؟ كده واللا لأ ؟ وكل ده فى محطة واحدة ، دا لازم القيامة ح تقوم ، والله يمكن قامت فعلا .. لازم القيامة قامت !

شيخوخة بدون جنون

فى صباح كهذا مات عم محمد .

والذى ضايقنى أن كل الناس كانوا يأخذون خبر موته على أنه مسألة مفروغ منها ، مسألة لا تحتمل بكاء ولا تأثرا أو حتى مصمصة شفاه .

يومها بدأت العمل بالتصديق على شهادات الميلاد .. وكل يوم كنت أبدأ عملى بالتوقيع على هذه الشهادات حتى يصبح المولود من هؤلاء مواطنا رسميا معترفا به من الدولة . والواقع أن عملى كمفتش صحة طالما ذكرنى بسيدنا رضوان ، فإذا كان عمله هو حراسة الآخرة فلا أحد يدخل فيها إلا بإذنه ولا أحد يغادرها إلا بتصريح منه ، فأنا الآخر أحرس الدنيا لا يدخل فيها أحد ولا يقيد وارد ومولود إلا بإمضائى ، ولا يعتبر الواحد قد خرج من الدنيا ومات إلا إذا وافقت أنا على هذا . كنت أبدأ باعتماد الشهادات ، ثم يقف سرب طويل من الأمهات أمامى لأكشف على أذرع أطفالهن وأرى إن كان التطعيم قد نجح أم لا .. نفس الأطفال الذين كانوا من فترة لا تتجاوز سنهم الأربعين يوما مجرد شهادات ميلاد ، الآن أصبح لهم عمر وبدأت لهم مشاكل .

والحق أنى كنت رغم مضايقات العمل الكثيرة أحس بنشوة وأنا أزاول عملية « المناظرة » تلك . الأطفال كلهم صغار وفى عمر واحد كأنهم باقة من أزهار الفل الصغيرة السن أشمها كل صباح ، كلهم صغار وكلهم حلوون ، وصراخهم مهما علا فهو رقيق لا يؤذى السمع ، وأيديهم بضة صغيرة ، وأظافرهم دقيقة تحب أن تقبلها ، ورفساتهم فيها كل نزق الحياة

وروعتها . والأمهات ــ أمهاتهم ــ كلهن أيضا حديثات الزواج وصغيرات ، وكلهن فرحات بأطفالهن مبالغات فى الحرص عليهم ولفهم فى سبع لفائف ، قادمات لا بد من الصباح الباكر إلى مكتب الصحة وقد تجمعن وارتدين أحسن ما لديهن ، وخططن حواجبهن وتكحلن ، ووجوههن صابحة تلمع بالنظافة ، وكلامهن صاف لا ضغائن ولا نقار ولا خناق ولكنه أنثوى عذب فيه كل دلع المصريات المؤدب الذى لا يزيد عن الحد ، وفيه كل خجلهن .

يقف الطابور أمامى وعلى ذراع كل أم صغيرة طفل صغير ، ولا يستقيم الطابور أبدا فكل واحدة تنخلع منه لتختلس النظر إلى ملابس الأخرى أو لتقارن بين ابنها اسم الله عليه وحجمه وسمنته وابن التى أمامها أو خلفها .. مقارنة لا تحمل سوى حب الاستطلاع ووالله ليس فيها حسد ، ومع هذا فكل واحدة تحاول إخفاء ابنها عن الأخرى مخافة العين ، فتزيد من عدد اللفائف وتحيط عنقه الأبيض بالأحجبة وأسنان الذئاب ، ولا بد أنها حين تعود إلى البيت ترقيه وتبخره . وحين تصل الواحدة أمامى ترتبك وهى تحاول أن تستخرج اليد الدقيقة من الكم الدقيق ، وكم هو جميل ذلك الكم ــ ويبدو أن كل شيء صغير جميل ــ ترتبك وهى تستخرج الذراع .. ذراع طولها طول الإصبع ولكنها مشاكسة وقبضتها مضمومة فى إصرار وكأنما تتوعد الدنيا وتتحداها ، ويرتفع الصراخ .. صراخ هذه المرة غاضب أحمق وحمقه حبيب ، وكم كان يؤلمنى الجرح الحادث من التطعيم ، الجرح البشع السخيف الذى يشوه البشرة الناعمة البضة .

وينتهى الطابور وتنتهى المناظرة ويخف ازدحام المكتب ، وتختفى أصوات النساء بكل ألوانها ولهجاتها ونبراتها لتبدأ ضجة أخرى تعلو وتعلو .. ضجة ليس فيها أنوثة النساء ولا رجولة الرجال ، ضجة الفتيان الصغار والفتيات الذين كانوا من سنين قليلة مجرد أطفال على أذرع أمهاتهم فى طابور المناظرة ، ولكنهم قادمون على أرجلهم هذه المرة وبأنفسهم . إذ هم التلامذة الذين يريدون شهادات من المكتب لتقبلهم المدارس ، والعمال الصغار والعاملات الذين جاءوا لإقرار أن سنهم تزيد على الاثنى عشر عاما لينطبق عليهم قانون تشغيل الأحداث وبهذا يمكنهم أن يبدءوا معركة أكل العيش بعرق الجبين . وطابور هؤلاء لا ضجة فيه ولا صخب ، فهم يقفون صامتين مستغربين عيونهم تحدق فى الناس والأشياء بدهشة وذهول ، وفى صدورهم خشوع الداخل إلى عالم ثان مجهول .

وقبل أن ينتهى طابورهم تكون ثمة ضجة أخرى قد بدأت تتجمع فى الخارج ، ضجة فيها زعيق وعصبية وأيمانات مغلظة وكلمات مكتومة تتناثر عن الظلم والعدل والإنسانية والحكومة والوقت الضائع ، ضجة الرجال .. ضجة لا تهدأ حتى بعد أن يوقفهم التومرجى طابورا وتنكمش قبضته الواسعة على النفحات الضئيلة التى يجود بها البعض ، ويهز رأسه مئات المرات وهو يؤكد لهم أن كله بالدور وأنهم حتما سيأخذون الإجازات التى يريدونها وسينجحون بإذن الله فى الكشف الطبى ، وأن الدكتور خالد طيب وابن حلال ومزاجه اليوم عال العال ، وعلى العين والرأس أعمارهم ستقدر وحاجاتهم ستنقضى بس شوية صبر : والصبر يا اخواننا من الإيمان .

ويدخل طابور الرجال .. طابور عمره ما وقف طابورا . طابور لا تلمح فيه سوى وجوه رجال قلقة تملؤها عجلة السباق المجنون للاستحواذ على الرغيف وانتزاعه من أفواه الآخرين ، وجوه خربشتها الحياة وخشنتها وجرحتها .. والجراح لا تزال يقطر منها الدم .

وحين تبلغ الساعة العاشرة أنتهى من عالم الأطفال والفتيان والكبار لأدخل فى عالم آخر عالم الموتى . وللأموات هم الآخرين عالمهم ومشاكلهم ، والميت لا ينتهى أمره أبدا بموته فقد يثير بوفاته أضعاف المشاكل التى أثارها بحياته ، فإذا كان عقاب أهل المولود إذا هربوه إلى الدنيا بلا تصريح أو شهادة ميلاد هو الغرامة جنيه ، فعقاب أهل المتوفى إذا هربوه من الدنيا ودفنوه بلا تصريح هو الحبس والسجن . وإذا كانت الحكومة لا يهمها كيف يعيش الإنسان طالما هو حى فهى توليه العناية القصوى إذا مات ، والقانون لا يسأل أبدا كيف عاش ولكنه يصرخ بأعلى صوته : كيف مات ؟

وإذا كان المعروف أن بعض الظن إثم فالمشرع يرى أن كل الظن فضيلة عظمى ، فأى إنسان يموت لا بد أنه مات مقتولا ما لم يثبت عكس ذلك وأنا الذى كان يقع على عاتقى إثبات ذلك العكس ، فعلىّ أن أكشف على كل متوفى وأعاينه وأفحصه وأشمشم وأرتاب ، حتى إذا ما اطمأن قلبى خمنت السبب التقريبى لوفاته وقيدت ذلك فى الشهادة ، وفى لحظتها فقط يصبح من حق الميت أن يدفن ويتوكل على الله إلى العالم الآخر .

فى الساعة العاشرة كنت أبدأ عملى مع الموت ، وأول من كنت أراهم فى هذا العالم هم صبيان الحانوتية حين يدخلون ويتجمهرون أمام المكتب . وكان عم محمد أحد هؤلاء الصبيان ، وأول الأمر لم أكن

أستطيع تمييزه من بينهم فقد كانوا جميعا متشابهين ، وإذا كان الصبيان فى العادة لا يمكن أن تتعدى أعمارهم مرحلة الصبا فأولئك كانوا أغرب صبيان ، إذ أن أصغرهم لا بد قد تجاوز الخامسة والستين من زمن طويل .
كلهم عواجيز .. وكبرهم ليس من ذلك النوع الصحيح السليم مثل الموظفين المحالين إلى المعاش مثلا أو المتقاعدين الذين تجدهم قد ابيضت شعورهم حقيقة .. وتجد وجوههم فيها تجاعيد وظهورهم قد أصابها الاعوجاج ، ولكنك تحس إذا نظرت إلى الواحد منهم أنه رجل كبير فى السن ليس إلا . هناك نوع من الكبر يمسخ الكائن الحى ويحيله إلى هيكل هش مرتجف . هذا الوجه الإنسانى المتناسق التقاطيع المرتب القسمات يستحيل إلى زبيبة .. مجرد زبيبة جافة مكرمشة لا يمكن أن تقول أبدا إنها كانت حبة عنب حمراء مملوءة بالدم والحياة فى يوم من الأيام .

كان صبيان الحانوتية كلهم من هذا الطراز ، الطويل فيهم قد زاده الكبر نحولا وطولا ، والقصير قد زاده العمر الطويل قصرا .

ودائما وجوههم ضامرة غلبانة ، جلدها خشن مجعد وذقونها بيضاء نابتة ، ونظراتها كليلة والعين الواحدة لا بد مصابة بأكثر من داء . ولهم ملابس « شغل » جلاليب قديمة ممزقة قد تختلف أنواعها وألوانها ولكنها قصيرة كجلاليب التلامذة لا تتعدى الركبة ، ولهم غطاء رأس واحد .. فلكل منهم عمامة عبارة عن خرقة — أى خرقة — ملتفة حول طاقية — أى طاقية — أو حتى يتعمم بها على اللحم .

كنت ما أكاد أراهم حتى يخالجنى الضحك ، فقد كانوا يبدون بأعمارهم تلك وعاهاتهم وملابسهم وعمائمهم ككائنات غريبة عن عالمنا هبطت لتوها من كوكب آخر كل ما فيه شائخ وعجوز .

وكان عمل هؤلاء « الصبيان » يبدأ من اللحظة التى تطلع فيها روح الميت تماما كالملائكة ، فإذا كان الملائكة يتولون حمل الروح إلى السماء كعابى أو على مراكب الشمس ، فصبيان الحانوتية يتكفلون بالجثة حتى يغيبوها فى باطن الأرض . وقد يبدو للبعض أن عمل الحانوتية أسهل ولكنه فى الواقع أصعب مائة مرة من الصعود بالروح إلى السماء ، وقد يبدو للبعض أنه عمل بغيض والواقع أنه ليس بغيضا ولا يحزنون ، إنه مجرد عمل كغيره من الأعمال . وإذا كنا نعمل فقط من أجل أن نأكل فكل عمل بغيض وكل عمل شغل ، وكل شغل كار وكل كار له أصول .

والأصول أن معلم الحانوت الكبير هو الذى يجلس فى الدكان يتلقى بلاغات الوفاة ويقابل الزبائن ويقبض العربون ، وفى أحوال نادرة يتولى بنفسه غسل الكرام .

أما الصبيان فهم الذين — حين يتم الاتفاق — يذهبون جريا فى جرى إلى بيت المتوفى ، ويتولون معاينته وخلع ملابسه ، ثم يجرى الواحد منهم إلى مكتب الصحة قبل فوات الميعاد ، ثم يعود جاريا فى جرى مستصحبا الطبيب ، ثم يجرى إلى الحانوت .. وإلى الدكان أو العطار ، وبأذرعه النحيلة يحمل الميت إلى المغسلة ويلبسه الكفن ويسخن الماء ويدلقه ويضع الميت فى النعش ، وقد يساهم بقسط كبير فى حمل المتوفى إلى الجامع والمدافن ، والنعش له ذراع خشبية طويلة غير ممسوحة أو مهذبة تستقر فوق عظمة الطوق العجوز التى لا يغطيها لحم فتكاد تقطعها ، والنعش ثقيل والمسافة دائما طويلة ، وما أفظع الصيف .. والمصيبة الكبرى لو كان الميت من أصحاب الأوزان الثقيلة .

فى الساعة العاشرة يدخل علىّ صبيان الحانوتية ويتجمهرون أمامى وتمتد أذرعهم الجافة العجوزة ببلاغات الوفاة ، وكل منهم ينافس الآخر فى إغرائى ، وكل منهم يحاول أن أذهب معه أولا لأكشف على متوفيه وأصرح له بالدفن لينجز عمله قبل فوات النهار .

وكنت ما أكاد أراهم حتى تنتابنى آلاف المشاعر والرغبات أقواها جميعا رغبتى فى أن أضحك . ولم أكن أدرى بالضبط لماذا يراودنى الضحك .. ولكن شيئا ما فى تركيب صبيان الحانوتية هؤلاء كنت لا أكاد أراه حتى أضحك ، لا من الصبيان ولا من تزاحمهم ولكن من الحياة نفسها ، ذلك الشيء الرائع الجميل الذى نتشبث به بكل ما نملك من قوة ، تلك الحياة أحيانا تضحك . وكنت لا أكتفى بالضحك بل كان لسانى يتحرك ، أحيانا يسخر وأحيانا يتفلسف وأحيانا يقول شيئا تافها لا معنى له . وفى أغلب الأحوال كنت أقول « للصبى » الذى اكتسح زملاءه فى سباق الأيدى وأصبح أمامى مباشرة :

— وانت .. إن شاء الله ح نكتب شهادة وفاتك إمتى ؟

وكان الصبى الشيخ حينئذ يضحك .. وضحكهم ليس كضحكنا ، فالواحد منهم ينظر إلى الأرض ويمط رأسه ويعض على نواجذه وتتسع عيناه قليلا ، ثم تخرج .. هه .. هه . تخرج من حنجرة جافة شائخة لم تعد تقوى حتى على الضحك .

كانوا فى العادة يضحكون كلما سألتهم ذلك السؤال ، غير أنى قلت لأحدهم شيئا كهذا مرة فلم يضحك واستغربت ، فالعادة قد جرت أن يضحك الجميع لكلامى سواء أرادوا أم لم يريدوا إذ كل منهم كان يحاول إرضائى . استغربت وأمعنت النظر فى « الصبى » ، ولم أجده يختلف عن

بقية زملائه فى قليل أو كثير .

فقد كانوا جميعا متشابهين كما يتشابه الأطفال حديثو الولادة فى طابور المناظرة ، وكأنما يبدأ الناس متشابهين وينتهون متشابهين . كل ما استطعت أن ألحظه من فرق أن عينيه الاثنتين كانت عليهما غشاوة رمادية داكنة كسحب الشتاء . وقلت له :

— مالك ؟!

كان لا بد أن فى الأمر شيئا فقال وجهه إلى الأرض :

— ياريت الواحد مات بدالها .

— بدال مين ؟

— مش بنتى تعيش انت .

— ماتت .

— أيوه امبارح .. هب فيها الوابور وماتت فى المستشفى .

ولم أصدقه فقد قال هذا دون أن يتغير الانفعال الذى لا يبرح وجهه ، وسألت (معلمه) لأتأكد .. ومعلمه لم يكن رئيسه فقط ولكنه يرأس ثلاثة صبيان شيوخ آخرين من صبيان حانوته . ولم يكن رجلا ضخما له شوارب كعادة (المعلمين) .. كان شابا فى الثلاثين حليق اللحية والشارب لونه برونزى قاتم وملامحه شديدة الخطورة ، ومع هذا كان فهلويا مضحاكا ورث الحانوت حين مات أبوه بعد أن لف ودار ، وتجمعت له كل حداقة اللف والدوران . ومن حركاته وطريقة ابتسامه تحس أنه ولد لا تفوت عليه الواحدة ، وإذا فاتت فبخطره فقط ورضاه . ورغم صغر سنه فقد كان يرتدى الزى التقليدى للمعلمين الكبار ... طربوشا وجيها فاقع الحمرة ، وجلبابا من الصوف تحته قفطان من الحرير

يبدو قيطانه الأسود من فتحة الجلباب ، وحذاء أسود أنيقا ، وفى يده سبحة كهرمان .

سألته فأكد لى أن ما قاله الرجل صحيح وأن ابنته ماتت حقيقة فى المستشفى ، وقد أصبح بموتها وحيدا مقطوعا من شجرة .

وصعب علىّ عم محمد جدا وهو واقف وقفته المنحنية المائلة وكأنما تجذبه إلى الأرض قوة عاتية تستعجل اللحظة التى تواريه داخلها ، واقف لا يبكى ولا يدمع ولا يهز رأسه ولا ينهار .

وقلت له :

ــ معلش يا عم محمد ... البقية فى حياتك .

وتنبهت وأنا أقول له هذا إلى أنى أخمن فقط أن اسمه عم محمد وأننى لا أعرف اسمه الحقيقى ، ولا أعرف إن كان محمدا أو عليا أو سمعان .. كنت أناديهم جميعا بياعم محمد ، وكانوا من فرط تواضعهم وأدبهم يردون وكأن لم يعد مهما لدى الواحد منهم أن يمتلك اسما . ودغم عم محمد الكلمات وهو يرد ويقول :

ــ يا ريت الواحد كان مات بدالها .

ونحن كثيرا ما نسمع تعبيرا كهذا يردده الناس فى مناسبات كهذه ، ولكننا نأخذه على محمل التأثر الشديد لا غير ، ولكن طريقة عم محمد فى قوله كانت لا تقبل الشك وكان واضحا تماما أنه يعنى ما يقول .

ومن يومها بدأت أهتم بالرجل .. بل بدأت أهتم بكل عم المحمدات من أمثاله ، وعرفت السر فى كبر السن الذى يبدو كأنه شرط أساسى من شروط العمل كصبى حانوت ، فمعظمهم كانوا فراشين فى مدارس أو سعاة فى مصالح ، أو عساكر بوليس أو خدمة سايره ، ثم أحيلوا إلى المعاش

والاستيداع بعد أن بلغوا السن وقضوا السنوات التى أعقبت الإحالة يزاولون أعمالا أخرى . ثم حين تنهد قواهم تماما ويبلغون من العمر أرذله ولا يعودون يصلحون لأى عمل آخر ، لا يصبح أمامهم مجال لكى يأكلوا العيش إلا العمل كصبيان حانوتية .. هذا إذا ساعدهم الحظ وكان هناك محل خال ، إذ هى صنعة لا تتطلب قوة كبيرة وأجرها ضئيل لا يرضى به أحد ، لا يرضى به إلا عجوز على شفا الموت ضعفا أو جوعا .

ومع هذا .. ومع درجات العمر التى بلغوها .. وفى تلك السن التى لا يستطيع العجوز فيها أن يفعل شيئا إلا أن يستلقى فوق فراشه وينتظر الموت ، مع هذا فما أكثر ما كانوا يتعبون ويشقون .

وعشرات الرحلات قطعتها مع عم محمد .

وقبل أن تبدأ الرحلة لا بد أن تحدث المسرحية التى تتكرر كل أسبوع .. فعم محمد مستعجل ويريد أن ينتهى من أخذ تصريح الدفن بسرعة ليتفرغ لغيره من المشاكل ، وليرضى المعلم ويريه كأى صبى شطارته . ولهذا فهو لا يريد أن أكشف على المتوفى لأن معنى الكشف أن أذهب إلى بيته والرحلة تستغرق وقتا طويلا . هو يريدنى أن أمضى له التصريح ونحن فى المكتب ، ولكن الأوامر هى الأوامر وعلىّ أن أكشف على المتوفى قبل التصريح . ويتحمس عم محمد جدا وهو يقسم بأغلظ الأيمان أن الوفاة طبيعية وألا جناية هناك ولا شبهة وأنه بنفسه قد خلع ملابس المتوفى وفحصه وجذب شعره وحملق فى عينيه وتحسس عظامه ، وأنه لا يريد سوى راحتى فقط . وأهز له رأسى علامة الرفض فيهز رأسه علامة اليأس ، ويجرى أمامى ويقول :

— على كيفك يا بيه .. اتفضل ..

ونمشى قليلا ثم يتوقف عم محمد ويعود يقول :

— والله يا بيه دا راجل كبير فى السن وما فيه إلا شيخوخة بدون جنون .

و « شيخوخة بدون جنون » تعبير اصطلح على إطلاقه على سبب الوفاة حين يكون المتوفى كبير السن وليست هناك علامات مرضية أخرى تصلح سببا للوفاة . وتضاف كلمة « بدون جنون » لأسباب قانونية تتعلق بميراث المتوفى والمشاكل التى تنشب بين الورثة حوله ، هذا إذا كان قد خلف ثروة فعلا وعقارا .

وهذا الاصطلاح قد شاع وانتشر بين أطباء الصحة وموظفى المكاتب والحانوتية لدرجة أنه لم يعد من المستغرب أن يقترحها عم محمد كسبب للوفاة ...

يتوقف عم محمد ويحاول محاولته الأخيرة تلك ، ولا يجد لها صدى عندى فيعود يجرى ويسبقنى ليرينى الطريق إلى بيت المتوفى ، والمنطقة آهلة بالسكان والبيوت والذباب وكل شىء قد يخطر على البال ، الناس أكثر من البيوت .. والبيوت أكثر من الفضاء .. والذباب بمعدل مليون ذبابة لكل قاطن .. والأشياء مكدسة مزدحمة وكأنما كومها فوق بعضها مستعجل لا وقت لديه .

وعم محمد رجلاه رفيعتان مقوستان وعرقه يسيل ، وحجمه ضئيل أصغر من قرد عجوز يكافح ليلاحق خطوى ، ويكافح ويكافح ليصبح أمامى ، ويزيح الناس حتى يدبر لى مكانا محترما أمر فيه ، ويصنع من نفسه عسكرى مرور ويوقف عربات الكارو ، ويأمر باعة الخضار بالكف عن

تشويحات الأيدى والزعيق حتى يمر « البيه » ، ويلهث ويحدثنى ويسليني ، ويلعن الخلق والزحمة ومن يخالفون أوامره ولا يفسحون الطريق ، ويقول إن الخير زال وأيام زمان كان الموتى على قفا من يشيل وكانت الأشياء معدن ، ويلهث وأسأله وقد بدأت أنا الآخر ألهث عن المتوفى وبيته وهل لا يزال بعيدا ، فيقول خطوتين بس . وأخطو عشرات الآلاف من الخطوات ولا يظهر بيت ولا ميت ، وموكبنا الصغير يدلف من شارع إلى زقاق ومن زقاق إلى خندق وحارة .. أسوأ موكب ، ما أن يرانا الناس حتى ترتفع الهمسات :

— يا فتاح يا عليم ع الصبح .. يا ترى مين مات النهارده ؟

وعم محمد يجرى أمامى ومن خلفى وعلى جانبى ، خائف خوف الموت أن أزهد وأزهق فأؤجل الكشف إلى ما بعد الظهر أو الغد وتكون الكارثة .

وأخيرا جدا نصل إلى بيت المتوفى ، وقبل أن نصل إليه يستميت عم محمد وهو يأخذ ثوبه فى أسنانه ويضاعف من جريه ليسبقنى ويوسع السكة .

وما أكاد أضع قدمى على الباب حتى تدوى عدة أصوات ينخلع لها قلبى ، ثم يرتفع تعديد : جالك الحكيم يا ضنايا . وكأن القادم هو عزرائيل .. ولكن عم محمد لا يأخذ باله من هذا ، يرتفع صوته صارخا على ضعفه :

— وسعى يا بنت انتى وهيه .. اتفضل يا بيه .. ياللا بلاش لكاعة .. يا خويا النسوان الكتيرة دى بتيجى من أنهى داهيه .. اتفضل يا بيه .

وتتسلل أكوام السواد والملاءات التى كانت تملأ حجرة البيت ، تتسلل إلى اليمين وإلى اليسار تنقب فى وجه الحكيم وتتأمله وتعلق .

ولا بد أن تأتى اللحظة التى تخلو فيها حجرة المتوفى ولا يبقى معه سوى القريب وعم محمد وأنا .

فيندفع عم محمد وهو لا يزال يلهث من المشوار والجرى ويكشف عن الميت غطاءه ويقول وكأنه يريد أن يثبت لى براءته ، وأنه كان على حق فى أن الوفاة طبيعية :

ــ أهه يا بيه .. زى الفل اهه .. والله ما فيه جنس حاجه . آدى صدره اهه ، وآدى بطنه ، وآدى بقه اهه نضيف زى الصينى بعد غسيله ، وآدى شعره اهه .

ويجذب عم محمد شعر الميت ليرينى أنه لم يمت مسموما ، وإلا لتساقط الشعر فى يده ، يجذب الشعر بقوة وعصبية فهو يريد أن يخلص والظهر اتترب ، ويقول له أهل المتوفى حاسب ! فيقول :

ــ حاضر .. أحاسب غصب عن عين أبويا أحاسب . وآدى الرجلين يا سعادة البيه .

ويرفع ساق الميت ويقول :

ــ والله ما فى الا شيخوخة بدون جنون ، وآدى ضهره .

ويحاول عم محمد أن يقلب الميت لأرى ظهره ، ويستعين بالسيدة والحسين وكل الأولياء ولكنه لا يستطيع ، فيكش فيه المعلم ويهب قائلا :

ــ اوع يا شيخ ... جلك تربة تلمك .

ولكن عم محمد لا يتنحى بل يظل فى مكانه يساعد معلمه فى قلب الميت ولو برفع ساق أو عدل يد .

وحين ينتهى الكشف ونخرج تبقى أنظار عم محمد معلقة بملامحى وكأنه ينتظر نتيجة امتحان ، ولا يتنفس الصعداء إلا حين أمضى التصريح فيأخذه وكأنه نعمة هبطت لتوها من السماء .. ويعض على نواجذه وتتسع عيناه وكأنه يبتسم ويقول :

ـــ مش برضه شيخوخة بدون جنون يا بيه ؟ . مش قلتلك ؟ . أنا كنت بس عامل على تعبك .

ثم تنطلق سيقانه المقوسة الرفيعة تجرى وتسبقنى إلى المكتب .

ومرة لمحت فى عين عم محمد دمعة .. دمعة صغيرة دقيقة وكأنها آخر دمعة فى حصالة عينيه . وكانت على أثر قلم سريع خاطف ناله من المعلم . كان قد ارتكب خطأ ما إذ حين ذهبت لأكشف على متوفى لم يكن قد خلع عنه كل ملابسه . وقبل أن ألوم المعلم على هذا الإهمال أو أؤنبه كان هو قد هوى بكفه على صدغ عم محمد فى صفعة سريعة خاطفة وكأنما ليقرر بها أن الذنب ذنب صبيه ، ويرينى أن العقاب قد أنزل ولم يعد هناك داع لكلمة لوم واحدة منى . وتولانى غضب جامح .. أما عم محمد فالعجيب أنه لم يثر ولم يحتج ولم يترك الغرفة ، بل وقف ويده مثبتة فوق مكان الصفعة وعلى وجهه إحساس بالذنب ، تماما كما يفعل أى صبى صغير حين يخطئ ويعاقبه المعلم .

وذهبت إلى المكتب مرة فوجدت حشدا كبيرا من العم محمدات . وكانوا يبدون إذا وقفوا معا وسط ما يحفل به المكتب من نساء صغيرات وأطفال ورجال ، يبدون كقبضة من قش الأرز فى وسط باقة من الزهور . وكانوا إذا وقفوا معا لا يتحدثون كما تفعل جماعات الناس بل يقفون ساكتين صامتين وكأنهم من طول ما تكلموا فى أعمارهم الطويلة قد ملوا الكلام .

واستغربت إذ لم أتعود وجودهم فى جماعات كبيرة كتلك . وما إن رآنى المعلم الشاب حتى أقبل هاشا باشا متهلل الوجه مصبحا بالفل والياسمين والقشطة ومقبلا الأيادى ، ولم يسلم الأمر من ضحكة عريضة جوفاء رددها ، ثم بدا عليه تأثر مفاجئ وضم قبضته على بطنه وقال :

— اسكت يا شيخ .

— إيه ؟

— مش الراجل مات .

— راجل مين ؟

قلتها وأنا أكاد أضحك ، فقد كان من عادة المعلم أن يحدثنى عن أشياء لا أعرفها وكأنى أعرفها ، ولكنه قال :

— الصبى بتاعنا ..

— عم محمد ؟ ..

— تعيش انت .

وفى الحال اتخذت سيماه طابع العمل وقال :

— بس والنبى يا دكتور تخلص لنا تصريح الدفن بتاعه بسرعة .. انت عارف .. الدنيا صيف وده راجل عضمه كبير ..

وضحكت فلم أصدق أن عم محمد مات حقيقة ، فقد كان معى بالأمس يجرى أمامى وخلفى وعلى جانبى ، ثم لما تصورته ميتا ضحكت لا لأنى لم أحزن ولكن لأن هناك نوبات من الحزن تأتى على هيئة ضحكات . ثم إن معلمه كان يستعجل تصريح دفنه بنفس الطريقة التى يستعجل بها تصاريح الزبائن ! .

وقال المعلم وهو يستحثنى :

— هيه يا بيه .. قلت إيه ؟

فقلت :

— بقى الراجل يعملها ويموت .

فقال المعلم :

— أيوم .. ولوماربنا بعت لنا صبي غيره كانت بقت وقعه النهارده ..

— صبى غيره ؟ .

— أهه .. تعال يا جندى .

وجاء جندى .. عجوز آخر فى السن ولكنه لم يكن قد ارتدى الزى الرسمى بعد ، فعلى رأسه كان ثمة طربوش قديم قد انهار وتكوم فى كتلة لا شكل لها ولا معنى .

وقال المعلم :

— امضى لنا التصريح بقى يا بيه .

فقلت له :

— لا .. أنا لازم اروح اشوفه .

فعاد يقول :

— يا بيه هو غريب ؟ .. ما انت عارفه .. أنا بس عامل على تعبك . هو انا ح اضحك عليك ؟ دا راجل مسن ، صرح لنا من هنا وخلاص .. شيخوخة بدون جنون والله ما فى غيرها .

وتطوع أكثر من صبى من صبيان الحانوتية والواقفين بالرجاء والإلحاف ومساندة المعلم . كانوا زملاء الفقيد قد جاءوا بلا ريب تدفعهم الرغبة لعمل شيء للزميل الراحل .

غير أنى أصررت على الذهاب ولو لألقى على عم محمد نظرة الوداع ، فللرفقة حق ولقد كان رفيق الطريق .

وبعد قليل غادرنا المكتب للكشف على عم محمد .

وكان موكبنا رهيبا .. كنت فى المقدمة وبجوارى المعلم وقد رفع ذيل جلبابه بيد وراح يحدثنى بيده الأخرى وبأصابعه وهزات رأسه عن « خرجة » عم محمد وكيف سيخرجه هو على نفقته ، مع أن الوقت غير ملائم والدنيا على كف عفريت .

وخلفنا كانت جمهرة العم محمدات .

وكان الموكب رهيبا إلى الدرجة التى كانت توقف الحركة فى الشارع ، وتدفع الناس إلى التساؤل عن الميت الهائل الذى يتطلب الكشف عليه هذا العدد العديد من الحانوتية وصبيانهم .

وكان البيت الذى يقطن فيه عم محمد بعيدا فى سفح الجبل ، وعبارة عن حوش واسع فى وسطه كومة هائلة من الزبالة وحولها حجرات أكثرها منهار ، ومع هذا فلكل حجرة سكان وقاطنون .

ولم يثر مقدمنا ضجة ولا صراخا ولا صخبا ، كان كل شيء هادئا وكأن لم يمت أحد . كل ما حدث أن بعض الكلاب هبهبت فصرخ فيها المعلم وأبعدها .

وكانت الحجرة مظلمة لا يضيئها غير النور الداخل من الباب ، وكان عم محمد راقدا بجوار الحائط ومغطى بأوراق جرائد ألمانية قديمة لا يدرى أحد كيف جاءت إلى هذا المكان .

وزعق المعلم فى « الصبى » الجديد :

— اكشف يا جدع .

وانحنى الصبى الشيخ بسرعة وأزاح الجرائد ويده تهتز وترتعش .. وبدا عم محمد ممددا وميتا ووجهه إلى الحائط كالتلميذ المذنب . كان ممددا بنفس ملابس الشغل وجسمه الصغير يكاد يتكور على نفسه ، وقدماه اللتان طالما لفتا الدنيا جريا فى جرى كانتا مستكينتين وعليهما حذاء سميك من الطين الجاف والتراب .

وقال المعلم :

ـــ أهه .. مافيش حاجة بتاتا .. اقلب يا جدع .. اقلبه على ضهره وريه للبيه .

ومد الصبى العجوز يديه وحاول قلب الجثة ففشل .

* * *

وحينئذ رأيت وكأن عم محمد ينبرى له من ميتته وينتفض مستديرا بطريقته الخفيفة النشطة :

ـــ أوعى يا جدع جك تربه تلمك .. أنا هه .. اتفضل يا بيه .. أنا اللى اقلب نفسى .. بس كان لزومه إيه تعبك يا بيه ؟ . أنا هه نضيف زى الفل ما فياش صنف حاجة .. آدى يا سيدى رجليه أهه .

ومد عم محمد رجليه ، فبدتا كجريدتين رفيعتين من جرايد النخل وقد نزع عنهما السعف .

ـــ وآدى جسمى أهه .

وخلع ملابسه بسرعة ، ووقف فى وسط الحجرة عاريا كما ولدته أمه ، وبدا جسده جافا ناشفا ليس فيه درهم واحد من اللحم . ويبدو أن الإنسان كالنبات يولد بذرة ويظل ينمو وتخضر أوراقه ، ثم يزدهر فى شبابه وتتفتح وروده ، ثم ينضج وتتكون له الثمار فى الرجولة ، وبعد ما يخلف ويؤدى رسالته فى الحياة ويصبح عجوزا يحدث له ما يحدث للنبات بعد

قطف ثماره فيجف وتبرز عظامه ويتناقص لحمه ، حتى ينتهى إلى شيء كعود القطن الجاف بعد جمعه .. ومضى عم محمد يقول وهو يستدير ليستعرض جسده :

ـــ مش قلتلك يا بيه ؟ . عضمه كبيره ، وآدى دراعه أهه ..

وحاول عم محمد جذب ذراعه فلم يستطع ، اذ يبدو أن الروماتيزم الذى كان يشكو لى منه دائما قد جففها تماما وجمدها ، فتركها عم محمد يائسا وانتقل إلى رأسه :

وآدى الراس .

رأس قد صغر الكبر حجمه حتى استحال إلى جمجمة كروية صغيرة ، فكها الأسفل يلتوى إلى أعلى والأعلى يلتوى إلى أسفل ، وملامحها كلها تكاد تنشفط داخل الفم .

ـــ وآدى الشعر اهه .

وجذب عم محمد بكلتا يديه الشعرات القليلة المتبقية فى رأسه .

ـــ وآدى رجليه اهه .

ومد أقداما شاحبة جدا وكأنها ماتت من عشرات السنين .

ويبدو أن المجهود الذى بذله فى عرض نفسه قد أنهكه ، فقد قال وهو يعود إلى رقدته ويعود إلى مواجهة الحائط :

ـــ كنت ريحت نفسك يا بيـــه .. ما قلتـــــلك .. والله ما فى إلا شيخوخة بدون جنون ..

* * *

وعدت إلى نفسى على قول المعلم :

ـــ هيه .. قلت إيه ؟

فقلت له :

— غسل .

وفى الحال بدأت حركة هائلة فى الحجرة ، وخلع المعلم جلبابه الصوف ووقف كالقبطان تصدر منه الأوامر متتابعة .

وبعد قليل كان عم محمد قد استقر فى النعش ، وكان النعش محمولا على أكتاف الزملاء « التربية » ، وكانوا يتمايلون به وهم يغادرون البيت بلا صوت واحد يدوى ويودع عم محمد .. أو صرخة .

وما كاد المعلم يطمئن إلى أن كل شىء قد انتهى وأنه قد قام بواجبه وأخرج صبيه على خير ما يرام ، حتى فوجئت به يتراجع ويجلس على قرافيصه بجوار الحائط ويخفى رأسه بين ركبتيه ويخرج صوته خشنا مكتوما يتخلله البكاء :

— يا ولداه يا عم محمد .

وبعد أن ذهبت نوبة بكائه رفع رأسه وقال بعينين محمرتين وقد تذكر الرسميات :

— مش مضيت له التصريح يا دكتور ؟ .

وهززت رأسى فعاد يقول :

— مش برضه .. ؟

فقلت :

— أيوه .. شيخوخة .

ومسح دموعا تكونت فى عينيه وهو يقول :

— بدون جنون .

فأجبته :

— أيوه .. بدون جنون .

طبلية من السماء

أن ترى إنسانا يجرى فى شارع من شوارع منية النصر فذلك حادث ، فالناس هناك نادرا ما يجرون .. ولماذا يجرون وليس فى القرية ما يستحق الجرى ؟ المواعيد لا تحسب بالدقائق والثوانى .. والقطارات تتحرك فى بطء الشمس . قطار إذا طلعت .. وآخر حين تتوسط السماء .. ومع مغيبها يفوت واحد . ولا ضجيج هناك يثير الأعصاب ويدفع إلى التهور والسرعة . كل شىء بطىء هادئ عاقل ، وكل شىء قانع مستمتع ببطئه وهدوئه ذاك ، والسرعة غير مطلوبة أبدا والعجلة من الشيطان .

أن ترى واحدا يجرى فى منية النصر فذلك حادث .. وكأنه صوت السرينة فى عربة بوليس النجدة فلا بد أن وراء جريه أمرا مثيرا . وما أجمل أن يحدث فى البلدة الهادئة البطيئة أمر مثير !

وفى يوم الجمعة ذاك لم يكن واحد فقط هو الذى يجرى فى منية النصر ، الواقع أنه كانت هناك حركة جرى واسعة النطاق . ولم يكن أحد يعرف السبب .. فالشوارع والأزقة تسبح فى هدوئها الأبدى وينتابها ذلك الركود الذى يستتب فى العادة بعد صلاة الجمعة ، حيث ترش أرضها بماء الغسيل المختلط بالرغوة والزهرة ورائحة الصابون الرخيص ، وحيث النسوة فى الداخل مشغولات بإعداد الغداء والرجال فى الخارج يتسكعون ويتصعلكون إلى أن ينتهى إعداد الغداء .. وإذا بهذا الهدوء كله يتعكر بسيقان ضخمة غليظة تجرى وتهز البيوت ، ويمر الجارى بجماعة جالسة أمام بيت فلا ينسى وهو لا يجرى أن يلقى السلام ، ويرد الجالسون

سلامه ويحاولون سؤاله عن سبب الجرى ولكنه يكون قد نفذ . حينئذ يقفون ويحاولون معرفة السبب وطبعا لا يستطيعون ، وحينئذ يدفعهم حب الاستطلاع إلى المشى ثم يقترح أحدهم الإسراع فيسرعون ويجدون أنفسهم آخر الأمر يجرون ، ولا ينسون أن يلقوا السلام على جماعات الجالسين فتقف الجماعات ولا تلبث أن تجد نفسها تجرى هى الأخرى .

غير أنه مهما غمض السبب فلا بد فى النهاية أن يعرف . ولا بد أن يتجمع الناس فى مكان الحادث بعد قليل .. فالبلدة صغيرة وألف من يدلك ، وقبل أن تلهث تكون قد قطعتها طولا وعرضا .

وهكذا لم يمض وقت طويل حتى كان قد تجمع عند الجرن عدد كبير من الناس .. وكل من فى استطاعته الجرى قد وصل ، ولم يبق مبعثرا فى الطريق غير كبار السن والعواجيز الذين آثروا التمشى حتى يبدوا كبارا فى السن ، وحتى يبدوا ثمة فرق بينهم وبين الشبان الصغار والعيال . ولكنهم كانوا أيضا يسرعون وفى نيتهم أن يصلوا قبل فوات الأوان وقبل أن يصبح الحادث خبرا .

ومنية النصر كغيرها من بلاد الله الواسعة تتشاءم من يوم الجمعة ، وأى حادث يقع فيه لا بد أنه كارثة أكيدة .. ليس هذا فقط ، بل إنهم مبالغة فى التشاؤم لا يجرءون على القيام بأى عمل فى هذا اليوم بالذات مخافة أن يصيبه الفشل ، وعلى هذا تؤجل الأعمال كلها إلى يوم السبت . وإذا سألت لماذا هذا التشاؤم قالوا لك لأن فى يوم الجمعة ساعة نحس . ولكن الظاهر أن السبب الحقيقى ليس هذا .. والظاهر أن ساعة النحس هذه حجة ليس إلا ووسيلة يستطيع بها الفلاحون أن يؤجلوا عمل الجمعة إلى السبت وبهذا يصبح يوم الجمعة راحة ، ولكن الراحة كلمة بشعة عند

الفلاحين . الراحة إهانة لخشونتهم وقدرتهم الخارقة على العمل التى لا تِكل . الراحة لا يحتاجها إلا أبناء المدن فقط ذوو اللحوم الطرية الذين يعملوَن فى الظل ومع هذا يلهثون . الراحة الأسبوعية بدعة ، إذن ألا يكون يوم الجمعة شؤما وفيه ساعة نحس ، وحينئذ فقط يكون من الجائز أن تؤجل الأعمال لتتم فى يوم السبت .

ولهذا كان الناس يتوقعون أن يكون سبب حركة الجرى هذه مصيبة كبرى حلت بأحد . ولكنهم حين يصلون إلى الجرن لا يجدون بهيمة فطسى ولا حريقا قائما ولا رجلا يذبح رجلا .

كانوا يجدون الشيخ عليا واقفا فى وسط الجرن وهو فى حالة غضب شديد وقد خلع جلبابه وعمامته وأمسك بعصاه وراح يهزها بعنف . وحين يسألون عن الحكاية يقول لهم السابقون :

ـــ الشيخ ح يكفر .

وكان الناس حينئذ يضحكون فلا ريب أن تلك نادرة أخرى من نوادر الشيخ على الذى كان هو نفسه نادرة . فرأسه كبير كرأس الحمار ، وعيناه واسعتان مستديرتان كعيون أم قويق ، وله فى ركن كل عين جلطة دم . وصوته إذا تكلم يخرج مبحوحا مكتوما كصوت الوابور إذا انكتم نفسه وشحر . ولم تكن له ابتسامة فقد كان لا يبتسم أبدا . إذا انبسط ونادرا ما ينبسط قهقه ، وإذا لم ينبسط كشر . وكلمة واحدة لا تعجبه يتعكر دمه حتى يستحيل إلى مازوت وينقض على قائلها .. قد ينقض عليه بيده ذات الأصابع الغليظة كالصوامع . أو قد ينقض عليه بعصاه .. وعصاه كان لها عقفة وكانت من خيزران غليظ وكان لها كعب من حديد ، وكان يحبها ويعزها ويسميها الحكمدار .

أرسله أبوه ليتعلم فى الأزهر وهناك أخطأ شيخه مرة وقال له : انت بغل . فما كان من الشيخ على إلا أن رد عليه وقال : انت ستين بغل . ولما رفتوه وعاد إلى منية النصر عمل خطيبا للمسجد وإماما . ونسى ذات يوم وصلى الجمعة ثلاث ركعات ، ولما حاول المصلون وراءه تنبيهه لعن آباءهم جميعا وطلق من يومها الإمامة والجامع .. ولأجل خاطرهم طلق الصلاة . وتعلم الكوتشينة وظل يلعبها حتى باع كل ما يملكه ، وحينئذ حلف بالطلاق أن يبطلها . وكان محمد أفندى المدرس بالمدرسة الابتدائية فى البندر فاتحا دكان بقالة فى البلدة ، عرض على الشيخ على أن يقف فى الدكان ساعات الصباح فقبل ، ولكنه لم يعمل إلا ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع كان محمد افندى واقفا أمام الدكان يتصبب حلاوة طحينية . فقد اكتشف الشيخ على أن محمد أفندى يضع قطعة حديد فى الميزان ليطب وقال له الشيخ على :

ـــ انت حرامى .

وما كاد محمد أفندى يقول :

ـــ لايمها يا شيخ على واسكت وخليك تاكل عيش .

حتى قذفه الشيخ على بكتلة الحلاوة الطحينية .. ومن يومها لم يجرؤ أحد على أن يعهد للشيخ على بعمل . وحتى لو كان قد جرؤ فالشيخ على نفسه لم يكن متحمسا لأى عمل .

وكان هذا الشيخ على قبيحا .. ضيق الصدر لا عمل له ، ومع هذا لم يكن فى البلدة من يكرهه .. كان الجميع يحبونه ويعشقونه ويتداولون نوادره . وألذ ساعة هى تلك التى يجلسون فيها حوله يستفزونه ليغضب ، وغضبه كان يضحكهم . كان إذا غضب واربدت ملامحه وانكتم

صوته .. كان الواحد منهم لا يتمالك نفسه ويموت من الضحك .. ويظلون يستفزونه ويظل هو يغضب .. ويضحكون حتى ينفض المجلس . وعلى كل لسان كلمة : الله يجازيك يا شيخ على . ويتركونه وحيدا ليصب جام غضبه على « أبو أحمد » فقد كان يسمى الفقر « أبو احمد » وكان يعتبره عدوه الوحيد اللدود .. ويتحدث عنه كما لو كان آدميا موجودا له اسم ولحم ودم . وكانت مجالسه تبدأ حين يسأله أحدهم :

— أبو احمد عمل فيك إيه يا شيخ على النهارده ؟ .

وكان الشيخ على يغضب حينئذ غضبا حقيقيا ، ذلك لأنه لم يكن يحب أن يحدثه أحد عن فقره .. إذا تحدث هو كان بها . أما أن يتحدث الناس عن فقره فذلك شيء يدفع إلى الغضب .. فالشيخ على كان خجولا جدا رغم قسوة ملامحه وكلامه ، وكان يفضل أن يبقى أياما بلا دخان على أن يطلب من أحدهم أن يلف له سيجارة . وكان يحمل معه على الدوام إبرة وفتلة لرتق جلبابه إذا تمزق ، وإذا اتسخ ذهب بعيدا عن البلدة وغسل ثيابه وظل عاريا حتى تجف . ولذلك كانت عمامته الوحيدة أنظف عمامة فى البلدة .

كان حريا إذن بأهل منية النصر أن يضحكوا من هذه النادرة الجديدة .. ولكن الضحكات كانت تموت فى الحال والألسن تتراجع خائفة إلى الحلوق وكأنما لدغتها عقارب . فكلمة الكفر كلمة بشعة ، والبلدة مثل غيرها من البلاد تحيا فى أمان الله فيها كل ما تحفل به سائر البلاد : الناس الطيبون الذين لا يعرفون إلا أعمالهم وبيوتهم ، واللصوص الصغار الذين يسرقون كيزان الذرة والكبار الذين ينقبون الزرائب ويسحبون البهائم من

أنوفها بالخطاطيف ، والتجار الذين يتاجرون بالمئات وتجار القروش ، والنساء الملعبات غير المعروفات وأولئك المعروفات على نطاق البلدة كلها ، والصادقون والكاذبون والخفراء ، والمرضى والعوانس والصالحون .. فيها كل ما تحفل به سائر البلاد .. ولكن الجميع تجدهم فى الجامع إذا أذن المؤذن للصلاة ولا تجد واحدا منهم فاطرا فى رمضان . وثمة قوانين مرعية تنظم حياة الكل ويسمونها الأصول ، فلا يتعدى اللص على لص ، ولا يعير أحد أحدا بصنعته ، ولا يجسر واحد على تحدى الشعور العام . وإذا بالشيخ على يقف ويخاطب الله هكذا بلا إحم ولا دستور .

كانوا يضحكون قليلا ولكنهم ما يكادون يسمعون ما يقوله حتى يتولاهم وجوم .

كان رأسه عاريا وشعره القصير يلمع بالعرق وبالشيب ، والعصا الحكمدار فى يمينه وعيناه تنفثان حمما ، وفى وجهه غضب أحمق شديد ، وكان يقول موجها كلامه إلى السماء :

ــ انت عايز منى إيه ؟ تقدر تقول لى انت عايز منى إيه ؟ الأزهر وسبته عشان خاطر شوية المشايخ اللى عاملين أوصياء الدين . ومراتى وطلقتها . والدار وبعتها . وأبو احمد وسلطته على دونا عن بقية الناس . هو مافيش فى الدنيا دى كلها إلا انى ؟ ما تنزل غضبك يا رب على تشرشل واللا زنهاور .. مش قادر الا على انى ؟ عايز منى إيه دلوقت ؟ المرات اللى فاتت كنت بتجوعنى يوم وباستحمل .. واقول يا واد كأننا فى رمضان وأهو يوم وينفض . المرة دى بقالى ما كلتش من أول امبارح العصر ، وسجاير ممعيش سجاير بقالى أسبوع . ومزاج حد الله ما دقته بقالى عشرة أيام ، وانت بتقول فيه فى الجنة عسل نحل وفواكه وأنهار لبن .

ما بتدنيش منهم ليه ؟ . مستنى أما اموت م الجوع علشان اروح الجنة وآكل من خيرك ؟ لا يا سيدى يفتح الله . احيينى النهارده وابقى بعد كده ودينى مطرح ما تودينى . يا اخى ما تبعد عنى أبو احمد ده . ما تبعته أمريكا . هو كان انكتب على ؟ انت بتعذبنى ليه ؟ آنى ما حلتيش إلا الجلابية دى والحكمدار . عايز منى إيه ؟ يا تغدينى دلوقتى حالا يا تاخدنى حداك على طول . ح اتغدينى والا لأ ؟

كان الشيخ على يقول هذا بانفعال رهيب حتى لقد تكوم الزبد فوق فمة ، وطمه العرق ، وامتلأ صوته بحقد فاض عن حده . وأهل منية النصر واقفون وقلوبهم تكاد تسقط من الرعب . كانوا خائفين أن يسوق الشيخ على فيها ويكفر . ولم يكن هذا فقط مبعث خوفهم فالكلمات التى يقولها الشيخ على خطيرة .. قد تغضب الله سبحانه وتعالى ، وقد تحل ببلدهم من جراء ذلك نقمة تأتى على الأخضر واليابس . كان كلام الشيخ على يهدد البلدة الآمنة كلها وكان لا بد من إسكاته . وعلى هذا بدأ العقلاء يطلقون من بعيد كلمات طيبات يرجون فيها من الشيخ على أن يعود إليه رشده ويسكت ، وترك الشيخ على السماء قليلا والتفت إليهم :

ــ أسكت ليه يا بلد دون ؟ أسكت لما أموت م الجوع ؟ أسكت ليه ؟ خايفين على بيوتكم ونسوانكم وزرعكم .. اللى حداه حاجة يخاف عليها ، إنما أنا مش خايف على حاجة ، إن كان زعلان منى ياخدنى . إنما ودينى وما أعبد ، إن إيجه حد ياخدنى انشالله يكون عزرائين نفسه لمدشدش على راسه الحكمدار . ودينى ما نى ساكت إلا ما يبعت لى مائدة من السما حالا . أنا مش أقل من مريم . هى مهما كانت حزمة انما أنا راجل . وهى ماكنتشى فقيره إنما أنا ابو احمد طلع دينى . ودينى وما أعبد مانى ساكت إلا اما يبعت لى حالا مائده .

والتفت الشيخ على إلى السماء وقال :

ـــ هه .. ح تبعتها حالا دلوقتى والا ما اخلى ولا أبقى حدايا الا ما اقوله ؟ مائده حالا . جوز فراخ وطبق عسل نحل ورصة عيش ساخن . على شرط عيش ساخن . واوع تنسى السلطة . ودينى لعادد لغاية عشره وإن ما نزلت المائدة مانى مخلى ولا مبقى .

ومضى الشيخ على يعد وقلوب منية النصر تعد معه مقدما ، والأعصاب قد بدأت تتوتر وأصبح لا بد من عمل شيء لإيقاف الشيخ على عند حده . واقترح أحدهم أن يلتف جماعة من شباب البلدة الأقوياء حوله ويوقعوه أرضا ويكمموا فاه ويعطوه علقة لا ينساها .. غير أن نظرة واحدة ألقاها الشيخ على من عينيه المشتعلتين بالغضب المجنون أذابت الاقتراح . فمن المستحيل أن ينالوا الشيخ على قبل أن يخبط هو خبطة أو خبطتين برأس الحكمدار .. وكل شاب قد قدر أن الخبطة ستكون من نصيبه . والذى يهدد بدشدشة رأس عزرائيل كفيل بدشدشة رأس الواحد منهم ، وعلى هذا ذاب الاقتراح .

وقال له أحدهم فى فروغ بال :

ـــ ما انت طول عمرك جعان يا راجل اشمعنى النهارده ؟ .

وأصابته نظرة نارية من الشيخ على وأجابه :

ـــ المرة دى يا عبد الجواد يا معصفر الحكاية طالت .

وزعق فيه آخر :

ـــ طب يا أخى لما انت جعان مش تقول لنا واحنا نوكلك بدل الكلام الفارغ اللى انت قاعد تقوله ده ؟

وهب فيه الشيخ على :

— آنى أطلب منكم ؟ آنى أشحت منكم يا بلد جعانة ، دا انتو جعانين أكثر منى اقوم اشحت منكم ؟ آنى جاى اطلب منه هو ، وإذا ما ادانيش ح اقدر اعرف شغلى .

وقال له عبد الجواد :

— ما كنت تشتغل يا أخى وتاكل . يخفى وجهك .

وهنا بلغ الغضب بالشيخ على منتهاه وتزربن وراح يهتز ويصرخ ووزع كلامه بين الجمع المحتشد عن بعد وبين السماء .

— وانت مالك يا عبد الجواد يا بن ست ابوها . مانيش مشتغل . مش عايز اشتغل . ما بعرفش اشتغل . مش لاقى شغل . هو شغلكو ده شغل يا عالم بقر ؟ دا شغلكو ده شغل حمير وآنى مش حمار . آنى ما اقدرش يتقطم وسطى طول النهار ، ما اقدرشى اتعلق فى الغيط زى البهيمة يا بهايم . يلعن أبوكو كلكلو مانيش مشتغل . والنبى لو حكمت أموت م الجوع ما اشتغل شغلكو أبدا .

وكان غضبه شديدا إلى الدرجة التى جعلت الناس تضحك بالرغم منها ، وبرغم الموقف الرهيب الذى كانوا فيه .

وانتفض الشيخ على انتفاضة عظيمة وقال :

— هه .. ح اعد لغاية عشرة والنبى ان ما بعت لى مائدة لكافر وعامل ما لا يعمل .

وكان واضحا أن الشيخ على حقيقة لن يتراجع وأنه ينوى أن يلبخ ، ويحدث حينئذ ما لا تحمد عقباه .

وبدا الشيخ على يعد وبدأت نقاط العرق تنبت على الجباه ، وأصبح حر الظهر لا يطاق حتى أن بعضهم تهامس أن النقمة لا بد قد بدأت تحل ،

وأن ذلك الحر الفظيع إن هو إلا مقدمة للحريق الهائل الذى سوف ينشب ويأتى على كل القمح الواقف والمحصود .

وأخطأ أحدهم مرة وقال :

ــ ما تشوفوا لقمة يا ولاد يمكن يهبط .

ويبدو أن الكلمة وصلت إلى أذن الشيخ على مع أنه كان يعد بصوت عال مرتفع ، فقد استدار إلى الجمع قائلا :

ــ لقمة إيه يا بلد يا غجر ؟ لقمة من عيشكو المعفن وجبنتكم القديمة اللى كلها دود ؟ وده أكل ؟ ودينى مانى ساكت الا اما تنزل لى المائدة لغاية هناهه وعليها جوز فراخ .

وسرت همهمة كثيرة فى الجمع ، وقالت ولية من الواقفات :

ــ آنى طابخه شوية بامية حلوين يا خويا أجيب لك صحن ؟

وصرخ فيها الشيخ على :

ــ اخرسى يا مره . بامية إيه يا بلد كلها قرون . دا عقولكو بقت كلها بامية وريحة بلدكو زى ريحة البامية الحامضة .

وقال أبو سرحان :

ــ حدانا سمك صابح يا شيخ على شاريينه لسه من احمد الصياد .

وزأر فيه الشيخ على :

ــ سمك إيه بتاعكو ده اللى قد العقلة يا بلد « صير » ؟ هو ده سمك ؟ ودينى إن ما بعت جوز فراخ والطلبات اللى قلت لك عليها لشاتم وزى ما يحصل يحصل .

وأصبح الوضع لا يحتمل ، إما السكوت وضياع البلدة ومن فيها وإما إسكات الشيخ على بأى طريقة ، وانطلقت مائة حنجرة تعزم عليه

بالغداء ، وانطلق صوته مائة مرة يرفض ويصر على الرفض ويقول :

ـــ مانى قاعد على اللضى يا بلد بقى لى تلات أيام ماحدش عزم على بلقمة ، حليت العزومة دلوقتى ؟ ودينى مانى ساكت الا اما تيجى المائدة من عند ربنا .

واستدارت الرءوس تسأل عمن طبخ فى هذا اليوم إذ أن كل الناس لا يطبخون كل يوم ، وأن يكون لدى أحدهم (زفر) أو فراخ يعد حادثا جللا . وأخيرا وجدوا عند عبد الرحمن رطل لحمة (بتلو) مسلوقا بحاله فأحضروه على طبلية .. وأحضروا معه فجلا وجوزين عيش مرحرح ومخ بصل ، وقالوا للشيخ على :

ـــ يقضيك ده ؟ .

وتردد بصر الشيخ على بين السماء والطبلية ، وكلما نظر إلى السماء قدحت عيناه شررا وكلما نظر إلى الطبلية احتقن وجهه غضبا .. والجمع يغمره السكون ، وأخيرا نطق الشيخ على وقال :

ـــ بقى آنى عايز مائدة يا بلد غجر تجبولى طبلية ؟ وفين علبة السجاير ؟

وأعطاه أحدهم صندوق دخانه .

ومد يده وتناول قطعة كبيرة من اللحم ، وقبل أن يتاويها فى فمه قال :

ـــ وحتة المرّة فين ؟!

فقالوا له :

ـــ حقه إلا دى .

وهاج الشيخ على وقال :

— طب هه . وترك الطعام وخلع جلبابه وعمامته وراح يهز عصاه ويهدد بالكفر من جديد . ولم يسكت إلا بعد أن أحضروا مندور تاجر المر ، وبلبع له فصا وقال له :

— خد .. خد يا شيخ مش خسارة فيك . أصلنا ماحدناش نظر وماكناش عارفين بتنكسف تطلب ، الناس تقعد وياك وتنبسط وبعدين تدلدل ودانها وتمشي وتسيبك واحنا لازم نشوف راحتك يا شيخ . هى بلدنا من غيرك انت وابو احمد تسوى بصلة ؟ إنت تضحكنا واحنا نأكّلك .. إيه رأيك فى كده ؟!

وغضب الشيخ على غضبا شديدا ، وطار وراء مندور وهو فى قمة الغيظ ومضى يهز الحكمدار وهو يكاد يهوى بها على رأسه ويقول :

— أنا اضحكوا ؟ هو آنى مضحكه يا مندور يا ابن البلغة ؟ إمش داهية تلعنك وتلعن أبوك .

وكان مندور يجرى أمامه وهو يضحك ، وكان الناس يتفرجون على المطاردة وهم يضحكون ، وحتى حين طار الشيخ على وراءهم جميعا وهو يسبهم ويلعنهم كانوا لا يزالون يضحكون .

ولا يزال الشيخ على يحيا فى منية النصر ولا تزال له فى كل يوم نادرة ، ولا يزال سريع الغضب ، ولا يزال الناس يضحكون من غضبه .. غير أنهم من يومها عرفوا له ، فما يكادون يرونه واقفا وسط الجرن وقد خلع جلبابه وعمامته وأمسك بالحكمدار فى يده وراح يهزها فى وجه السماء ، حتى يدركوا أنهم نسوا أمره وتركوا « أبو احمد » ينفرد به أكثر من اللازم ، وحينئذ وقبل أن تتسرب من فمه كلمة كفر واحدة تكون الطبلية قد جاءته وعليها ما يطلبه ، وأحيانا يرضى بما قسم وأمره إلى الله .

اليد الكبيرة

هبطتُ من القطار فى العصر . ودائما أصل بلدنا فى العصر والمحطة على ناحية من السكة الحديد وبلدنا على ناحية ، والشمس صفراء وفى صفرتها هدوء وسكون ومرض ، وبلدنا أيضا تقبع صفراء ببيوتها المصنوعة من الطين وأشجارها حتى قمم النخيل كانت تظللها صفرة ..

ورمقنى نفر من دائمى الجلوس على كنبة المحطة إذ هى مكان صالح للجلوس الفارغ ، لا أحد يطرد الجالس ولا يطلب منه الثمن . رمقنى ذلك النفر بنظرة لا بد أنه كان فيها رثاء . ومشيت والقطار لا يزال واقفا برأسه الأسود البشع السواد ، والأصوات الخشنة القبيحة التى لا تكف عن الصدور منه ، والعين الواسعة المدورة الحمراء التى تنفخ فى داخلها بين الحين والحين وتنفث جحيما أحمر ، الرأس الذى طالما أخافنا ونحن صغار بأفظع مما كان يخيفنا رأس أم الغول . هذه المرة عبرت القضيب الحديدى من أمامه وأنا لا أحفل بشىء ولا أخاف الموت .

وكنت حين أصبح على المشاية الضيقة التى توصل إلى داخل البلدة وإلى دارنا أحس إحساسا غريبا بأنى أخيرا عدت ، ودائما كنت أصادف فى طريقى ثلاثة أو أربعة من أهل بلدنا منتشرين فى تلك البقعة وأقول لهم : سلام عليكم ! ويجيبوننى ويرحبون بى وهم يرمقوننى ويرون ما أحدثته السنون فىّ من تغيير وأرى ما أحدثته السنون فيهم من تغيير . رأيتهم وأنا طفل ورأونى وهم شباب ، واليوم لم أعد طفلا ولم يعودوا شبابا . الزمن .. الزمن الغادر الذى لا أمان له لا يكف عن المضى ونحن لا نكف

عن الكبر ولا نكف عن الاقتراب من النهاية . ونحن لا نحس بالزمن إلا إذا رأيناه ، ونحن نرى ما أحدثه الزمن فى الآخرين فنتوقع أننا لا بد أننا نحن الآخرين كبرنا ..

وقريتنا دائما هادئة ، لا صوت .. لا زعيق .. لا شجار .. لا شيء ، هواء يداعب ما على الأسطح من حطب ، وقوافل الأوز ساكنة لا تكاكى ، وكل شيء من الطين ، والأرض فوقها تراب ، وفى السماء دخان المواقد ، والناس يتحركون فى صمت ووجوم وبلا حماس كمن يدرك ألا داعى للعجلة مطلقا ولا فائدة فى الحركة ، الناس صامتون كأنما ينتظرون يوم القيامة ليتكلموا أو ينتظرون الموت .

وأعرف أنى إذا وضعت قدمى على المشاية فسأرى بيوتا على عتباتها نسوة . وتعودت من صغرى أن أغض طرفى حين أمر ، وتعودن أن يتهامسن بعد مرورى يحدقون فى وأنا قادم ثم يتهامسن .

والمشاية قطعتها عشرات الآلاف من المرات .. إلى الابتدائية ببنطلون قصير ، وتعلمت فيها ركوب العجلة ، وجريت فرحا بنجاحى فى الامتحان ، وتزحلقت أيام المطر ، ولعبت فيها مع الأولاد بالليل ، وفى آخرها بيتنا له سور وباب من الصاج ، وأمامه مباشرة باب جارتنا بديعة وهى دائما أمام الباب أطفالها حولها وهم صغار ، والنسوة حولها لما كبر الأطفال . ودائما تصنع شيئا ، تدعك النحاس أو تنشف الغلة أو تسأل عن فرخة ضائعة ، ومن لحظة أن ترانى هالا من أول المشاية تلمحنى وتفرح ، ثم تنهمك فيما تصنعه فهى تريدنى أن أقول لها العواف ، تريدنى فقد كنت من سنين طويلة طفلا أعطش إذا لعبت وجريت وأذهب لأشرب من عندها خوفا أن تضربنى أمى إذا ذهبت لبيتنا ورأت ما أنا فيه

من إجهاد ، وكانت خالتى بديعة تسقينى وتحمينى وتخبئنى عندها إذا غضبت وتحوش عنى إذا ضربت ، ولكننى كبرت وتعلمت وأصبحت أفنديا طويلا له بدلة ، ترى ألا زلت أذكرها ؟ ذاك بلا ريب ما كان يدور فى خاطرها كلما رأتنى مقبلا من مصر ومعى الشنطة ، والسنون قد جففت عودها وكرمشت جلدها ولكنها أبقت لها ابتسامتها الوديعة ذات الطيبة .

وقلت لها :

ـــ العواف يا خالة بديعة .

ورفعت رأسها ولمحت الفرحة الدافقة على عينيها واضطراب يدها وهى تجلى الحلة بالتراب ، وكادت تبتسم ولكنها عادت ورددت فى صوت حنون راث رقيق ، وهزنى الصوت فلم تكن خالتى بديعة كذلك .. كانت ما تكاد ترد على عافيتى حتى تترك ما فى يدها وتقوم هالعة وتفتح بابنا وتكاد تزغرد ، وتقول :

ـــ أهو جه .. أهو جه ..

وتحدث حينئذ ضجة هائلة فى بيتنا ، فهم لم يرونى من ستة أشهر أو سنة ودائما فى شوق إلى ، وكنت قد تخرجت صغيرا ومن يوم أن تخرجت لا أراهم إلا لماما ، وكانوا يحبوننى .

يفتح بابنا ويخرج أكثر من واحد من إخوتى حفاة وبجلابيبهم، وأحيانا بالفانلة والسروال ، ويتعلق كل منهم فى جزء من رقبتى وفرحتهم بأخيهم الكبير لا توصف ، فرحة تتفجر على ألسنتهم صياحا وتهليلا ولا يقولون سوى : هيه .. هيه .. هيه ..

وأعانقهم بكل قلبي وأذرعي ، هم إخوتي وأنا أحبهم .. والمدينة التي أعيش فيها مليئة بالصراع وحياتي هناك مقبضة أدافع فيها عن الوجود ، وجودي ووجود غيري ، وأقف أمام قوات هائلة .. وقلبي وحيد ، والناس لا أكرههم وأرثي لهم وأصدقائي كثيرون ، ولكن مثل هذا الحب لا أتذوقه إلا هنا .. حب لا مقابل له ولا حدود ، حب ملموس محسوس لا يخفيه أحد ولا يضن به أحد .

أعانقهم أبذل الجهود لأتخلص من أذرعهم الصغيرة الطفلة .. حتى أرى أبي فأنا دائما مشتاق له .. أنا ابنه الكبير وحبيبه الكبير أيضا . وكان وضعي يحتم علي أن أبدو كالرجال تماما ، وكنت أفعل ولكني كنت دائما أحن إلى أبي .. إلى طفولتي .. إلى أن أنفض عني ثياب الرجال وأعود طفلا أو كالطفل حتى أبدو ابنا ، وحتى أحس أني ابن . وكنت أحب أبي .. أدخل من الباب فأجده قد أفاق مما كان يفعله على عجل ، واقفا يرتدي جلبابه ورأسه عار وصدره مفتوح وهو حائر فرحان يبحث هنا وهناك عن شيء يضعه في قدميه ليستطيع أن يسرع ويقابلني .. فقد كان هو الآخر يحبني ، يحبني أكثر من أي شيء آخر في الوجود . ويقف على باب دارنا الكبيرة ويفتح يديه الاثنتين ويقول :

— أهلا أهلا .. اخص عليك يا شيخ .

وأندفع إلى حضنه ويندفع إلى حضني وكم حضنته وكم احتضنني ، وطول عمري كنت أريد أن أظل أحتضنه . كنت وأنا صغير لا أطول إلا ساقه فأحتضنها ، ثم كبرت حتى أصبح في استطاعتي أن ألف يدي حول وسطه وكم كان يملؤني هذا بالغبطة . ثم كبرت حتى أصبحت طوله ، وها أنذا أصبح أطول منه وأحبه أكثر مما أحببته وأنا لا أكاد أتعدى

ساقه . أحتضنه وأقبله بلهفة ، وألمح جلد رقبته وقد حفل بالتجعدات . أحب تجعيداته ، وشعر صدره وقد ابيض وأطل من فتحة الفانلة ، ولون بشرته الداخلية الفاتح ، ووجهه الأسمر ، وأنفه الهادئ الطيب ، وعينيه الحافلتين بالخير والحب ، وأقبله أكثر ويقبلنى والدموع تكاد تأخذ طريقها إلى عينيه وهو يقول :

ـــ اخص عليك يا شيخ وحشتنا .. خالص ..

وفى تلك اللحظات أصمت وأحس بالروح تعود إلى ، أنا مضيَّع فى المدينة الكبيرة وحيد ، وهنا أبى ، هنا بيتنا ، هنا أنا إنسان له أب ويعرف أصله وفصله والأرض التى شب عليها .

أبى لا يريد أن ينهى العناق ، وإخوتى من حولى يتخاطفون منى الحقيبة ويتشبثون بملابسى ويعانقون بعضهم بعضا . وأمى أعرف أنها لا بد فى تلك اللحظة متناومة تنتظر منى أن أذهب إليها وأنادى فلا ترد علىّ وكأنها فى أحلى نعاس ، فأذهب إلى الفراش وأمسك يدها وأميل بجسمى كله وأقبل اليد البيضاء الخشنة ، وحينئذ تفتح أمى عينيها وكأنها تستيقظ وتقول فى حزن :

ـــ الله يسلمك .

ولا أملك نفسى فأضمها وأقبلها فى جبهتها فلا تملك نفسها هى الأخرى وتقبلنى فى وجنتى وصوتها ممدود شاك حزين ، وتلك طريقتها فى بث أشواقها إلى إذ هى لا تظهر حبها أبدا .

ونجلس حول فراشها وكل أخ من إخوتى يزاحم الآخر ليجلس بجوارى أو فوق رجلى ، وأبى يبتعد عنى ليوفر لهم المكان ولو كان الود وده

لزاحم وما تركنى ، وأمى تشكو من الزكام والروماتزم ورأسها الذى يكاد يطير ، وأبى فرحان فرحا لا يوصف يخفيه بصمته وتهيئة وسائل الراحة لى فيضع وراء ظهرى مسندا ، أو يجعلنى أقوم من مكانى لأجلس فى مكان آخر أكثر راحة . وهو من فرط فرحته قد نسى أن يرتدى فى قدميه مداسا .. وأقدامه كبيرة كنت شغوفا وأنا صغير أن أمسح وجهى فى بطنها وألعب فى أصبعها الكبير وأنا فخور بكبره وكبرها ..

نجلس ، عائلة تواجه الحياة ولكنها فى صفو ، ساعة تتبخر فيها الأحزان والمتاعب ولا يبقى سوى الحب والشوق والكلمات الصغيرة المبعثرة والضحكات .. ضحكات صافية ، والعائلة صغيرة والحياة كبيرة والطريق شاق ، ولكن لها هى الأخرى ساعتها ، ساعة كتلك .. اللمبة الغاز مشتعلة والحجرة حجرة أرياف والسرير له ناموسية والكنبة تضيق بنا ، وفى الصيف لنا جلسة فى الفضاء أمام الباب ، وأبى سعيد جالس بيننا كالإله ، كلنا نحبه ونذوب فى حديثه . ما أجمله حين يتحدث ! فى الحال نصمت كلنا ونترقب ، ويبدأ حديثه بابتسامة تظل طوال الحديث ، وحنجرته رنينها حلو وصوته ملآن وطريقته فى الكلام تأسرنا وتخلب ألبابنا . يكون قد ذهب إلى المحكمة مثلا وأدى الشهادة ويقص هذا علينا ، ونحب قصته فهو يبدأ من اللحظة التى نريده جميعا أن يبدأ منها ويقص علينا التفاصيل المثيرة الدقيقة ويسرح بنا ويدخل فى حكاية أخرى ، ولا نحس أن حكاية بدأت وأخرى قد انتهت إنما نحس أننا سعداء وأننا نحب أبانا ونعبده .

* * *

لم تقم بخالتى بديعة وتترك ما فى يدها وتعلن قدومى فى هذه المرة . بل ردت تحيتى وخفضت رأسها وانهمكت تجلى الحلة . وتركتها واتجهت إلى دارنا . كان باب الحوش مفتوحا والباب من الصاج والهواء يتلاعب به فتزيق مفاصله ، ووراء الباب فرخة منكمشة على نفسها ، وطفل يتبول . ودخلت .. الهدوء هو الهدوء ، ولكن بيتنا ليس هو البيت فهذا أوسع وأكثر ارتفاعا وفيه فراغ كبير . خطوت إلى الداخل بضع خطوات .. الفناء هو الفناء « الطلمبة » موجودة وحوضها من الحجرة والماء يتسرب من الحوض ويصنع قنوات ، والأشجار متفرقة كعادتها ، والنخلة قد نمت وقتلت ما حولها من نخيل صغير وأصبحت أطول من الحائط ، وشجرة العنب ماتت لا ريب من كثرة الماء ، وبرج الحمام فى آخر الفناء أبيض وفيه خرابيش ، وأوضة الفرن بابها مهبب أسود والظلام يشع من داخلها ، والأرض عليها عفش ومهملة والفناء كبير ..

ووجدت باب البيت مفتوحا هو الآخر ولا أحد على الباب ولا أحد فى الداخل ولا أحد ينتظرنى وكل شىء مهمل ، والدنيا شتاء واصفرار الشمس قد ازداد والنخلة الصغيرة طول ظلها يمتد بطول منزلنا ..

ودخلت البيت .. الصالة الكبيرة أكبر مما رأيتها آخر مرة ، والسقف مرتفع وعروق السقف أكثر بروزا ، والكنبة بياضتها متسخة ومساندها نائمة ، والحجرات مقفلة ولا صوت .

الحمام واقف على قمة الباب المؤدى إلى السلم يهدل هديلا ممدودا قبيحا ، وكلبنا نائم على فروة الصلاة ، وعصافير غير مرئية تصفر ، وشعاع شمسى قد اخترق بئر السلم وسقط على أرض الصالة فصنع دائرة صغيرة من الضوء الأصفر ، وتعلقت بالشعاع ملايين الذرات .

وأحسست أن بيتنا قد خرب .

وعدت إلى الخارج ثم إلى الشارع ، وما رأتنى خالتى بديعة حتى قالت:

— عايز حاجه ؟.

قلت :

— هم فين ؟

قالت :

— طلعوا على الجبانة .

قلت :

— وسايبين البيت فاضى ؟

قالت :

— ما انا هه .

ورأيت نفسى أمشى .

كان صدرى فارغا موحشا كئيبا والدنيا من حولى لا تجذب انتباهى . ما قيمة أى شىء ؟ ما قيمة أن أقول للناس : سلام عليكم . فيردون السلام وتفضل ؟ إنهم أحياء وأنا حى ، ولكن ما حدث قد حدث .

وتهت .. بدت لى بلدتنا التى أعرف كل ركن من أركانها بلدة أخرى . كنت أمر فى هذه الشوارع والحوارى دائما وأنا لا أحس لها وجودا ، وأنا آلفها وكأنها بيتنا . واليوم وأنا أمشى فيها كنت أراها لأول مرة ، وكنت أعرف أناس بلدتنا وألفتهم من طول معرفتهم ، ولكنى كنت أمر بهم وأراهم فأحس أنهم رجال ، وأنهم أغراب وأنهم متعبون . شىء لا بد قد حدث .. فأنا أحس الآن ببلدتنا وأناسها وكنت قبلا آلفهم .. شىء ما لا بد قد حدث .

تهت ، فخلال السنين التى كنت بعيدا عنها كبرت بلدتنا واتسعت وأنشئت بيوت جديدة . وكنت قبلا أعرف طريق الجبانة فبجوارها كانت توجد وسعاية يقام فيها العيد . العيد ؟ ترى لماذا لم يعد هناك عيد ؟ لماذا لم نعد نحس به ؟ يأتى ويمضى كأى يوم من الأيام . أين اليقظة المبكرة ، والكعكة والعيدية ، وثياب الناس الجديدة الزاهية ، والمراجيح ، والمشبك والحلاوة الطحينية ، و« الفرد ابو فِلة » الذى كان يفرقع ونخيف به جداتنا ؟ .

تهت ، ولكنى وصلت وأصبحت خارج البلدة .. ولم أجد الوسعاية. كانت قد تراكمت فيها بيوت أخرى مصنوعة من الطين . وكانت الجبانة هناك تطل قبورها من بين البيوت .

وكم كنا مغفلين !

فها هى القبور أمامى وحولى .. قبور فقيرة مهدمة لا شىء يرعب فيها ولا يخيف . ترى ما سبب الفزع الذى كنا نحسه ونحن صغار حين نلمح الجبانة من بعيد ؟ ترى أين قبر جدتى وأين قبر عمى وخالى ؟ إن القبور مهدمة كلها ومبعثرة لا تكاد تفرق بين أحدها والآخر ، وكل ما يميزها جريدة عند أولها وجريدة عند آخرها .. جريدة جافة قديمة قد تآكلت أوراقها واستحالت إلى نسل .

جبت المكان بناظرى فلم أجد أحدا ، لا ريب أنهم كانوا قد غادروا الجبانة وعادوا إلى البيت ، ولم أجد عناء كبيرا فى العثور على القبر فقد كنت لا أزال أذكر أنه قرب شجرة الكافور ، وها هى شجرة الكافور . لا بد أن هذا هو القبر .. ووقفت أمامه . كان الأسمنت لا يزال أخضر ، ولم يكن البناء جيدا وأثر « المحارة » واضح ، ومن الأمام لافتة مركبة كتب

عليها : المرحوم .. قرأت اسم أبى . وعدت أنظر حولى .. القبور مهدمة ، وأشجار الكافور طويلة وحيدة جرداء ، والشمس خنقها العصر الضيق ، والغربان تتناحر عن بعد ، وسوادها كثير .

أبى هنا إذن تحت هذا القبر ! كل هذه الكمية من الحجارة والتراب والأسمنت فوقه وهو الذى كان لا يحتمل إغلاق نافذة الحجرة ساعة . أبى هنا نائم وملفوف بالكفن التيل المخطط وفوقه الكفن الأبيض وحوله كل تلك الوحشة ، وعيونه مغلقة . أبى هنا لا يمكن أن يكون راقدا فقد كان لا يحتمل الرقاد الطويل . لا بد أنه جالس .. أجل إنه جالس .. جالس القرفصاء وكأنه يقرأ التحيات وقدمه الكبيرة مثنية تحته وأصبعه السبابة تتحرك وعيناه إلى أسفل وكأنه يصلى . ها هو قد ختم الصلاة .

وقلت : سلام عليكم .

ولم يرد . فقط نظر إلى بعينيه الواسعتين ورأيت رقرقة الفرحة فى عينيه ، ولكنه لم يرد وكان حزينا ويتمتم بختام الصلاة .

قلت له : أنا هنا يا أبى .. أنا حبيبك وقد عدت . لماذا لا تقول : أهلا .. أهلا ..

لماذا لا تقول : إنحص عليك .

وقلب كفيه حتى أصبح باطنهما إلى أعلى ورفع وجهه إلى السماء ودعا بشىء ، ثم مسح بيديه على وجهه وتطلع إلىّ ، كان حزينا ومتعبا ولم يتكلم .

فقلت : ألا تعرف أنى أحبك ؟

وأغمض عينيه ، وشدد من إغلاق أجفانه وكأنما يقول نعم نعم .

قلت : وحبى لك لا يقدر ؟!

وفتح عينيه وفيهما لمعة حزن .

فقلت : وأنت أحب إنسان إلينا جميعا .

فعاد يغلق عينيه فى ألم .

فقلت صارخا : إذن لماذا تفعلها وتموت ؟!

وفتح عينيه فى دهشة وحدجنى بنظرته القاسية الثابتة .

تلك النظرة التى كان يطالعنى بها كلما ارتكبت خطأ عظيما . وكنت أخاف من نظرته تلك وأنا صغير وأخافتنى لحظتها كما لم أخف فى حياتى . وخفضت صوتى حتى استحال إلى همس وقلت : وحياة النبى الذى كنت تحبه ، لماذا مت ؟ لماذا تركتنا ؟ .

وكان أبى أسمر وله تجاعيد.. تجاعيد كبيرة طيبة، وكنا نحبها وطالما لثمناها ولم يتغير منظره فى أعيننا طوال السنين ، كنا نكبر ونتفرق ونعود لنجده أسمر ذا تجاعيد كبيرة طيبة .

وأردت أن أقبله فى تلك اللحظة فقد أحسست فجأة أنى مشتاق إليه وحياتى قضيتها مشتاقا إليه . وكلما عدت من غيبتى ورأيته أقسم لنفسى أنى لا بد سآخذ إجازة لأقضيها معه فقط ولأشبع منه ، فقد كنت أخاف أن يموت قبل أن أشبع منه .. أردت أن أقبله واندفعت ناحيته لأفعل ولكنه رفع يده من فوق ركبته كمن لا يود أن يقاطع وهو يصلى ، وتوقفت وقلت :

— كيف تموت قبل أن أشبع منك ؟

ولمحت دمعة صغيرة كرأس الدبوس تفر من عينه ، وتذكرت لحظتها فقط ساعة أن وضعوا النعش بجوار الحفرة ثم فردوا ملاءة كبيرة فوقها وأزاحوا غطاء النعش ، وبالراحة حملوه وقد أصبح صغيرا فى الكفن

الأبيض ، ووسطه قد سقط بين أيدى الرجال ويده اليمنى حين انزلقت وأطلت من الكفن .. كانت هى يده بلا ريب ، نفس اليد الحبيبة الضخمة ذات الشعر والكف التى طالما ملست على رءوسنا وباركتنا ، اليد التى كنا نقبلها ونتأملها ونحن نقبلها ، اليد التى طالما لعبنا فى أصابعها الكبيرة وأحببنا لونها وخطوطها وضخامتها .

وعدت أقول له : لماذا لم تقل لنا إنك ستموت ؟ وانتظرت أن يجيب فلم يفعل .. فنظرت إليه فوجدته لا يزال على جلسته ولكن عينيه مغمضتان ووجهه أصفر شديد الشحوب لا يتحرك . وجدته كشجرتنا المقطوعة حين هوت على طولها فى الفناء ومضى على قطعها أيام واصفرت أوراقها وذبلت وتعرت الأغصان .

وعدت إلى بيتنا .

لا يزال برج الحمام فى آخر الفناء أبيض وفيه خرابيش ، وأوضة الفرن بابها مهبب أسود وظلام يشع داخلها ، والأرض عليها عفش كثير ، والبيت واسع جدا وخاو ليس فيه إلا المغرب والصمت والهواء الساكن الذى لا يريم .

وفى نفس الحجرة التى كنا نجتمع فيها أصبحنا وحدنا . وجلسنا .. إخوتى يرتدون ملابسهم الكاملة وتكشيرة الحزن تبدو غريبة على وجوههم الصغيرة الشابة ، وأمى متعصبة بمنديل وفى أنفها وفمها وعينيها ألم واحمرار ودموع .

جلسنا صامتين واجمين ، ومصباح الغاز نوره أحمر كئيب وعلى الجدران ظلال رءوسنا .. ظلال واجمة داكنة كقلوبنا تبهت وتغمق كلما كبرت ذبالة المصباح وصغرت ، جلسنا ساكتين وكأننا ننتظر شيئا ما ، ننتظر

أن يدق الباب ونذهب جميعا لنفتح لأنه قد عاد .. ضاحكا طربوشه إلى الوراء كما تعود أن يفعل ، فاتحا ذراعيه وصدره ليسعنا جميعا بكل مشاكلنا ومتاعبنا الصغيرة . أو هو فى الحمام لا بد وحالا سيخرج .. ويتنحنح ويكح كحته التى حفظناها وألفناها ، كحته التى لا نتصور بيتنا إلا بها . أو هو فى الفناء حتما يحادث جارنا ويصلنا صوته من بعيد ، وما أجمل صوته حين كان يصلنا من بعيد ونعرف أن هذا صوت أبينا ، نعرفه من ألف صوت ونحبه دون آلاف الأصوات ونفرح به ، فمعناه أن أبانا قريب وأنه قادم ، وأننا سنكون بعد قليل حوله وفى حضنه وعلى مقربة من عينيه وحديثه وشعر صدره .

ولكن شيئا مما انتظرناه لم يحدث . لا دق الباب ولا سمعنا صوتا ، وأفظع ما فى الأمر أننا كنا متأكدين أن الباب لن يدق وأننا لن نسمع أصواتا .

والمصباح يكاد نوره يختنق وغازه يفرغ ، وظلالنا تبهت على الجدران وتتداعى ، وإحساس غريب بدأت أحس به وأدرك أننى كنت أعانيه ولا أشعر ، إحساس أكاد أتذوقه بطرف لسانى وأحس بقبضته حول صدرى ، إحساس بأننى حزين حزين .

وتطلعت فى وجوه إخوتى .. وجوه مطرقة صامتة ذاهلة .

وتطلعوا إلىّ .

وفجأة وكأنما لسعنا خاطر واحد انفجرنا كلنا نبكى ، فقد أحسسنا لحظتها فقط أن أبانا حقيقة مات وأنه انتهى من حياتنا إلى الأبد ولم يعد لنا أب . ما أبشع هذا ! لم يعد لنا أب !

تحويد العروسة

كون الشراقوة ــ بلدياتى ــ كرماء ، مسألة لا نقض فيها ولا إبرام . أما أن يبلغ هذا الكرم حد التهور وحد « تحويد » العروسة فتلك مسألة أخرى كما يقولون . بل هى فى الواقع عادة غريبة لم يبطل استعمالها فى مديرية الشرقية إلا من سنتين تقريبا .

فمن المعروف أن البنت الريفية حين تتزوج فى بلد غير بلدها يخرج أهلها فى يوم الدخلة عن بكرة أبيهم لإيصالها إلى بلد العريس . ونظرا لأن الأمن ــ أيام زمان طبعا ــ لم يكن مستتبا فى تلك المناطق الواسعة الشاسعة ، فقد جرت العادة أن يخرج مع العروسة عدد كبير من أهل بلدها فى أثناء الطريق ، مكونين بموكبهم قافلة طويلة جدا على رأسها جمل العروسة الذى يقوده العريس فى العادة ، أو من ينوب عن العريس .

إلى هنا والأمر عادى يحدث مثله فى كل مديريات القطر . أما الذى كان لا يحدث إلا فى الشرقية وحدها فهو أن موكب العروسة كان حين يمر ببلد من البلاد أو بعزبة من العزب ، يخرج أهل البلدة أو العزبة بأعيانها وشيوخها وشبابها ليعزموا العروسة وبلدياتها . ولكى يثبتوا جدية العزومة كانوا يذبحون الذبيحة فعلا ويعلقون رأسها فوق نبوت أحدهم وينتظرون حتى يقترب الموكب ، وحينئذ يتقدمون منه ويضعونه أمام الأمر الواقع قائلين :

ــ تفضلوا عشاكم جاهز والذبيحة ذبحت ومبيتكم الليلة عندنا ..

وطبعا كان أهل العروسة يرفضون بشدة فالليلة ليلة الدخلة ولا وقت للعزائم أو مزاولة الكرم الشديد ، ولكن العازمين لا يرضيهم هذا معتبرين أن الرفض إهانة خطيرة موجهة إلى قدرتهم على استضافة العروسة وأهلها . ويشدد أهل البلدة فى دعوتهم ويشدد أهل العروسة فى رفضهم ويزداد كل طرف إصرارا . ويصل الأمر فى النهاية إلى حد الشتائم والتماسك بالأيدى .. ثم لا تلبث النبابيت أن ترتفع وتقوم خناقة كبيرة قد تسفر عن قتلى وجرحى ، ولكنها لا بد أن تنتهى إلى أحد أمرين : إما انتصار أهل العروسة ومواصلة طريقهم إلى بلد العريس ، وإما انتصار أهل البلدة واقتياد الموكب المهزوم واستضافته بالقوة ...

وفى أغلب الأحيان كان أهل العروسة ينتصرون إذ الحمية كانت تأخذهم والمسألة بالنسبة إليهم مسألة كرامة وشرف ممكن الدفاع عنهما إلى حد الموت . أما بالنسبة إلى أهل البلدة فنادرا ما كانوا ينتصرون إذ المسألة بالنسبة إليهم مجرد إظهار لشدة كرمهم ، وتلك قضية قد لا تدفع الإنسان إلى التفريط فى نفسه وإزهاق روحه ..

ظلت هذه العادة جارية قرونا طويلة وقرونا حتى قضى عليها من وقت قريب .. وسبب زوالها أن إحدى بنات قرية كفر عزب كتب كتابها على واحدة من بلدة أخرى بعيدة . وفى يوم الدخلة خرج أهل القرية عن بكرة أبيهم ليوصلوا العروس كالعادة .

وفى الطريق فوجئوا بعملاق أسود يخرج عليهم ومعه ثلة من أتباعه وقد رفع نبوتا أطول من النخلة فوق رأسه ، ووقف فى وسط الطريق دون أن ينبس ببنت شفة . وما كاد أفراد الموكب يلمحون الرجل حتى بدأ اضطراب شديد يجتاح صفهم الطويل ، ذلك لأن أهالى كفر العزب كان

بينهم وبين الشجاعة عدم استلطاف قديم . كانت البلدة مكونة من عائلات كبيرة ثم تفتتت .. فتتها الفقر وقلة الأرض وتحولت إلى كفر مزدحم بآلاف الأنفس المتناحرة التى يأكل بعضها البعض ولا تبالى . كان أهل الكفر كلهم صغارا فى صغار ، الملاك لا يمتلك الواحد فيهم أكثر من بضع قراريط كل أمله فى الحياة أن يجعلها فدانا بأكمله ، والتجار — إذا صحت التسمية — مجرد باعة سريحة يلفون البقج والأخراج على أكتافهم يوم السوق ، وفى البلد أكثر من خمسين دكان بقالة لا يزيد ثمن البضاعة فى أى منها على الخمسة الجنيهات ..

وهناك عشرات يحترفون صناعة القهوة والشاى ، ورأس مال الواحد فيهم ليس أكثر من براد شاى وعشة آيلة للسقوط يسكنها القهوجى .. والفقهاء ومقرئى القرآن ومن يصنعون الطعمية ويقفون بها على أبواب الجوامع بعد الصلاة ، والقفاصون والقصاصون وصغار اللصوص والحرامية .. كل هؤلاء متوفرون بالمئات والعشرات والحمد لله ! إذا خلا منصب خفير تقدم له أكثر من مائة وبذلوا الوساطات والشفاعات ، والذى يعمل منهم خولى دودة فى موسم نقاوة القطن لا بد أن أمه دعت له ، ومع هذا الضيق الشديد فى الرزق ، بل يمكن أن يكون من أجل هذا الضيق الشديد فى الرزق ، فشكاوى بعضهم من بعض لا تنتهى ، والبلاغات التى تدعى الشروع فى القتل والسرقة بالإكراه وهتك العرض تنهال على المركز من كفر العزب باستمرار ، والجدع هناك طبعا هو من يكسب القرش الأزيد بلا أى اعتبار للطريقة التى جاء بها القرش . الرجل إذا نخنخ ووفر المليم شاطر ، وشيخ الحصة إذا أخذ شلنا أو نص فرنك ليمضى على العرضحال شاطر ، حتى العمدة شاطر .. لأنه من التجارة فى

القطن (ثانى جمعة) اسما ، والمسروق من الحقول فعلا ، قد حاز نصاب العمودية .

وعلى هذا لم يكن غريبا إذا ذكرت لأحد من أهل كفر العزب شيئا عن الجدعنة أو الشجاعة أن يلوى رقبته ويقول لك :

ــ ودى تسوى كام فى يوم السوق يا حبيبى .. ؟

بل هم فى الواقع لم يكلفوا خواطرهم ، ولم يخرج المئات منهم لتوصيل العروسة فى ذلك اليوم إلا وكل منهم يطمع فى عشاء الفراخ الفاخر ذى البطاطس وأكوام اللحم المسلوق المغطاة بالأرغفة المخبوزة الطازجة ، ولا تحسب الحلويات والفرجة المجانية ، ثم من يدرى ؟ ألا يحتمل أن تفتح لأحدهم ليلة القدر ويظفر بسيجارة مكنة ؟

ممكن إذن أن نتصور الاضطراب الشديد الذى اجتاح موكب العزابوة لدى ظهور المارد الأسود ، وكيف علت همهمتهم وتقطع طابورهم الطويل وانخلعت الأفئدة وارتفعت الرءوس تستكشف وتحاول أن تجد مخرجا ، وتتساءل :

ــ مين يتكلم يا ولاد مين ؟

ذلك لأنه لم يكن للموكب زعيم أو رئيس ، فالعزابوة يكرهون الزعامة لأن كلا منهم يريد أن يكون هو الزعيم ، ولكن الزعامة هنا محفوفة بالمخاطرة ولهذا لا بد أن يتساءلوا ويتصايحوا :

ــ مين يتكلم يا ولاد مين ..

ورشح بعضهم الشيخ رجب أبو شمعة لا لأنه كان يمتلك ثلاثة أفدنة بأكملها اشتراها سهما سهما ودبق ثمنها من حرمان نفسه وأولاده من لبن الجاموسة وبيعه، ولكن لأنه كان أكثرهم حكمة فى موقف تعتبر الجرأة فيه نوعا من الحمق وقلة الأدب .

ولم يقبل الشيخ رجب إلا بعد إلحاح .. بل كاد يصنع عين واعتدالا .. أى أكثرهم خوفا ، ورجل كهذا تحمد زعامته فى الحكمة ويعود وحده إلى البلد ، ولكن تحت وابل من الدعوات والألقاب والتضرعات قبل ، وزعق فى الموكب مخاطبا إياه من أوله إلى آخره طالبا السكوت التام . وحين تم له ما أراد لكز حمارته القصيرة ذات اللون البنى الذى هو أقرب إلى لون فئران الغيط منه إلى لون الحمير ، وتقدم ممتطيا صهوتها ، غير أنه ما كاد يقترب من المارد الأسود وثلته حتى ترجل عنها احتراما ، وتقدم منهم قائلا بلهجة معجونة بملق العزابوة الأصيل :

ـــ دستوركم يا سيادنا .. سلامو عليكم .

ورفع إليه العملاق الأسود عينين يطق منهما الشرر وقال :

ـــ لا سلام ولا كلام ! حودوا على طول ..

وبلهجة أكثر ملقا قال الشيخ رجب مدعيا البراءة التامة :

ـــ على فين يا سيادتنا ؟

ـــ أنتم ضيوفنا الليلة ..

ـــ ضيوف مين ؟ ..

ـــ ضيوف السنديك بك .. احنا بتوعه وآنى عنبر راجله ..

وحاول الشيخ رجب أن يتملص ويتخلص سائلا الرجل عن رأس الذبيحة التى جرت العادة أن تكون معلقة فوق نبوته ، مدعيا أن عدم وجودها يعطيهم الحق فى رفض الدعوة .. ولكن الرجل أفهمه بطريقة لا تقبل النقاش أو الجدل أن الذبيحة ذبحت فعلا وأنهم لا بد أن يعودوا الليلة مهما فعلوا وسواء بالقوة أو بالتى هى أحسن .. ويبدو أن كلامه هذا أثار بعض شبان العزابوة ولم تعجبهم طريقة الشيخ رجب ، وأحبوا أن

يظهروا شجاعتهم على الأقل أمام نساء بلدهم الموجودات فى الموكب ، فزمجروا وتصايحوا ورفعوا عصيهم الخيزران استعدادا للمعركة . ولكن الشيخ رجب رفع لهم يدا حاسمة غاضبة ولعن آباءهم جميعا علامة الزعامة وأسكتهم ، فقد كان يعرف حصة أهل بلده من الشجاعة ، ويعلم نتيجة أية خناقة قد تنشب مع العزابوة ، إذ ما تكاد الخناقة تبدأ حتى يخبط العزباوى من هؤلاء خبطتين فقط ليثبت وجوده ويقيد اسمه فى سجل المتشاجرين ، ولكن ما يكاد الضرب الحقيقى يشتغل وتصبح الحكاية جدا حتى يطلق ساقيه للريح ، وعلى هذا قال للرجل الأسود :

— مختصر الكلام ... انت عايز إيه يا عم ؟

— تحودوا بالتى هى أحسن .

فقال الشيخ رجب وهو يلكز حمارته :

— بس كده ؟ .. حاضر ... احنا ضيوفك الليلة يا سيدى ولا تزعل ... حود يا وله انت وهو .

ورفع عنبر العملاق الأسود حاجبيه علامة الدهشة وكأنما فجع بهذا التسليم المطلق بلا قيد ولا شرط .. وهو الذى كان يحلم بخناقة يتسلى ويفخر برواية تفاصيلها أياما كثيرة ، ولا بد أنه عجب من هؤلاء القوم الذين لا يقيمون للكرامة وزنا ، ولكنه على أية حال أمسك بمقود جمل العروسة ومضى مييما وجهه شطر العزبة ووراءه ما لا يقل عن خمسمائة من أهالى كفر العزب ما بين راكب وراجل .. وواضع ثوبه فى أسنانه .. وحامل بلغته تحت إبطه .. أو مفضل أن يمشى بجوار دابته عملا بالمثل العزباوى المشهور :

— هين نفسك ولا تهين بهيمتك .

وأهل الموكب الضخم على عزبة السنديك . وخرج البيه بشخصه يتفرج على فرح (الفلاحين) هذا ، وإذا بالموكب ــ لدهشته الشديدة ــ يقف لدى سور حديقته ولا يتزحزح ، والأغرب من هذا أن عنبر خادمه كان يقود الموكب .

وقال عنبر للشيخ رجب :

ــ استنوا انتم هنا واوعوا حد يتحرك .

وتحرك هو داخلا على سيده دخول طارق بن زياد بعد فتح الأندلس ، قائلا بصوت القائد الظافر :

ــ حودنا العروسة يا سيدى البيك .

ونظر إليه البيك نظره إلى مخبول ولم يفهم ، وأخيرا بدا عليه أنه تذكر وأن أباه كان قد حدثه عن شيء كهذا . ولكن تلك المسائل كانت فى الزمان الغابر فى أيامه الأولى وأيام أبيه وجده الأكبر .. أيام العز ، الأيام التى يسمع أنه كان لديهم فيها ألف وخمسمائة فدان وأربعة آلاف رأس من الغنم . أين هو الآن من تلك الأيام ؟ الأرض راحت والعز راح ومنزل الضيوف تهدم والمحصول يرهن لعدة بنوك قبل جمعه وحصاده ، ولم يبق من مظاهر المجد القديم إلا عنبر آخر ما تبقى من عبيد العائلة أيام أن كان للعائلة عبيد . وإذا بعنبر الأحمق هذا يحضر له ذلك الجيش من أهالى كفر العزب ليستضيفهم ، جيش جائع متهالك كل واحد فيه لا بد قد أجاع نفسه لعشوة الفرح حتى غارت وجنتاه ؟ .

وهكذا نزل البيه شتما وسبا ولعنا فى خادمه ، وعنبر مذهول مدهوش من تصرف سيده فطالما حود عرائس له ولأبيه ، وطالما فرحوا به وبانتصاراته وجازوه عليها خير الجزاء ، وإذا بجزائه هذه المرة علقة ؟

الظاهر أن الأسياد فسدوا هم الآخرين كما فسد الزمان وراحت السيادة مع العصر الذى ولى ، وإلا فكيف يخاف البيك من تحويد العروسة وكيف لا يفخر ؟

وظل البيه يضيق الخناق على خادمه حتى خيره بين أحد أمرين : إما صرف هؤلاء الناس كما أحضرهم وإما قتله رميا بالرصاص . ولم يجد عنبر بدا من اختيار الأولى ، وعاد وقد تغيرت سحنته وخبا الشرر فى عينيه وتدلدلت ملامحه وهو الذى سحب هذه المرة ناعما للشيخ رجب ولف كفه فى ملق كثير محاولا أن يعتذر ، ملقيا الذنب على نفسه ومقسما بالله العظيم ثلاثا أن سيده لم يكن له علم بما حدث .

ولكن سيده مين ؟ اعتدل الشيخ رجب فوق حمارته وانجعص إلى الوراء كما يفعل الأبطال المغاوير ، واسترد الخمسمائة من أهالى كفر العزب أنفاسهم الهاربة ووقفوا وراءه — ربما لأول مرة فى حياتهم — وقفة رجل واحد يؤيدونه ويحبذونه مصرين على أنهم ضيوف السنديك بيك تلك الليلة ، ما فى ذلك كلام أو سلام ، وأن كرامتهم لا يمكن أن تسمح بأن يهانوا على تلك الصورة .. هى الحكاية إيه ؟ لعب عيال ؟ .

وانقطع نفس عنبر وهو يجرى رائحا غاديا بين الشيخ رجب وبين البيك حاملا رأى كل منهما إلى الآخر ، مخفيا رأى كل منهما فى الآخر آملا أن تنجح المفاوضات . ولكن المفاوضات لم تنجح . ولما تأكد للبيك أنه ما لم يستضفهم فسيفضحونه فى طول البلاد وعرضها وسيضحكون عليه طوب الأرض ، قبل الضيافة وأمره إلى الله ، وقضى ليلته حائرا واقفا على أقدامه باحثا عن أحفة وأطباق وطعام يسد به مئات الأفواه المفتوحة الجائعة .

وكان أول شيء فعله فى الصباح أن استغنى عن خدمات عنبر إلى الأبد ، مفضلا أن يتنازل عن آخر مظاهر العز ولا الحوجة للدواهى التى تأتى بها تلك المظاهر .

أما العزابوة فبعد أن شربوا قهوة الصباح ورشفوها بمزاج وأشعلوا السجائر أربعة وعشرين قيراطا ، توكلوا على الله وامتطوا ركائبهم واستأنفوا طريقهم إلى بلد العريس ، ودعواتهم تنهال على الشيخ رجب وحكمته ، ومن كان منهم يشك فى زعامته آمن وسلم وأصبح له أخلص المخلصين .. وزيادة فى التكريم أخروا جمل العروسة وأصروا على أن يجعلوا الشيخ رجب وحمارته على رأس موكبهم .

وما كاد الموكب يبتعد عن عزبة السنديك قليلا والضحكات والفرقعات الصاعدة من البطون الممتلئة ببلاش تتصاعد منه ، حتى برز لهم عند الكوبرى المتحرك جماعة من أهل الروضة :

ـــ اقف عندك يا جدع انت وهو .. وقفوا .

وتقدم الشيخ رجب مصطنعا البراءة يسأل : وما كادت كلمة « حودوا » تفلت من فم أكبرهم سنا حتى كان الشيخ رجب قد حود حمارته ناحية البلدة فعلا ، ويده تشير لبقية الركب أن يتبعوه .

ووقعت الروضة فى حيص بيص إذ كان عليها لأول مرة أن تستضيف خمسمائة هى التى لا يتعدى أهلها المائتين ، وقد حاولوا الاعتذار بقولهم إنهم لم يكونوا على استعداد ولكن الشيخ رجب كفاهم مئونة الخجل قائلا :

ـــ الموجود يا جماعة يسد .

* * *

وهكذا ظل ركب العزابوة وعلى رأسهم الشيخ رجب أبو شمعة ، تودعه بلدة لتستقبله بلدة أو عزبة أخرى حتى ولو كان الذى يعترض الطريق رجلا واحدا ، وحتى ولو كان قد قال كلمته على سبيل المجاملة والترحيب لا أكثر ولا أقل .

ولم يصل الركب إلى بلدة العريس إلا بعد سبعة أيام قضاها العزابوة يأكلون ويشربون ويدخنون ويطعمون ركائبهم شعيرا وبرسيما وفولا .

ومن أيامها اضطر الشراقوة إلى تخفيف حدة كرمهم ، فتابوا عن تحويد العرائس وحرموا اعتراض مواكبها .

حادثة شرف

أعتقد أنهم لا يزالون يسمون الحب هناك « العيب » . ولا بد أنهم لا يزالون أيضا يتحرجون عن ذكره علانية ، ويتغامزون به وإنما تلمحه فى النظرات التائهة الحيرى ، وفى وجنات البنات حين تحمر وتخضر وتنسدل عليها الأجفان .

والعزبة كأى عزبة ، لم تكن كبيرة : بضع عشرات من البيوت المبنية بحيث تكون ظهورها إلى الخارج وأبواب الدور تفتح كلها على حوش داخلى واسع ، حيث الساحة الصغيرة التى يقيمون فيها الأفراح ويعلقون العجول المريضة إذا ذبحت لتباع بالأقة وبالكوم . والأحداث فى العزبة قليلة ومعروفة .. النهار يبدأ قبل مشرق الشمس وينتهى بعد مغيبها ، والمكان المفضل هو عتبة البوابة الكبيرة حيث الهواء البحرى وحيث يستحب النوم ساعة القيالة ولعب (السيجة) . الأحداث قليلة ومعروفة .. بل تكاد تعرفها حتى قبل أن تقع ، وتعرف أن هذه البنت المفعوصة التى تلعب الحجلة ستكبر بعد عدد من السنين وسيصفو لونها الملبد ، ثم يخرطها خراط البنات وتتزوج .. بالتأكيد واحدا من هؤلاء الصبية الذين يرتدون الجلابيب الممزقة على اللحم ويستحمون فى الترعة وينطون كالقرود المسلسلة من فوق الكوبرى .

غير أنه أحيانا ، تقع حوادث لا تكون معروفة ولا يمكن التنبؤ بوقوعها ، مثل ذلك اليوم الذى ترددت فيه الصرخات فى الغيط .. الصرخات الغامضة الغريبة التى ينشق عنها فضاء الريف الواسع أحيانا

فتدوى بطريقة مفاجئة ومرعبة ومستغيثة دون أن تعرف مصدرها ، ولكنك لا بد تدرك منها أن شيئا مهولا قد وقع ، ولا بد حينئذ أن تفيق فتجد نفسك تجرى لتنجد أو على الأقل لتعرف الخبر .

غير أنه فى تلك المرة لم يكن هناك ما يستدعى النجدة أو المساعدة ، بل أكثر من هذا كان العائدون إلى العزبة يجدون حرجا كثيرا حين تسألهم النساء عما حدث .

ماذا يقولون ؟ أيقولون إنهم وجدوا فاطمة فى « الذرة » مع غريب ؟ .

ماذا يقولون وفاطمة ليست غريبة وغريب ليس غريبا .. فاطمة أخت فرج وغريب ابن عبدون ، والحكاية ليست تائهة ، فالعزبة صغيرة والناس فيها عائلة واحدة .. ولا يعرفون بعضهم البعض معرفة دقيقة فقط ولكن كل واحد يعرف عن الآخر أدق دقائقه وأخص أموره ، حتى النقود القليلة التى قد يكتنزها أحدهم يعرفون مكانها بالضبط وعددها والطريقة التى يمكن أن تسرق بها .. ولكن أحدا لا يسرق من أحد . هم إذا سرقوا يسرقون من محصول العزبة ، وحتى هذه مجرد سرقات صغيرة لا تتعدى ملء عب قطن أو حجر كيزان دره ، أو يساهى أحدهم خفير الزراعة وينضح مصرف أرز ويأخذ سمكه له وحده دون أن يورد نصفه للناظر كما جرت العادة .

وفاطمة معروفة وكل شىء عنها معروف ، ولم تكن أبدا ذات سيرة خبيثة أو سلوك معوج . كل ما فى الأمر أنها حلوة .. أو على وجه أصح كانت أحلى بنت فى العزبة . وليس هذا هو الوجه الصحيح للمسألة أيضا فإذا كانت الحلاوة تقاس فى الأرياف بالبياض ففاطمة كانت سمراء .

المسألة لها وجه آخر خاص بفاطمة وحدها ، فلم يكن فى استطاعة أحد فى العزبة أن يعرف ماذا فى هذه البنت بالذات دونا عن بقية البنات . خدودها صحيح كانت حمراء سمراء شديدة الاحمرار تظن معه أنها لا بد تفطر كل يوم بعسل نحل وتتعشى بفراخ وحمام ، ولكنك تدهش إذا عرفت أنه احمرار قد صنع من صحون المش والفلفل المخلل وعروق البصل والفجل والسمك الصغير المحروق فى الفرن . وعيونها كانت سوداء غامقة السواد ، ذاك السواد اللامع الذى لا تراه إلا مشعا ومضيئا ودائم الحركة لا يستقر .. العيون التى لا تحتمل أن تنظر إليها أو تنظر إليك لحظة . وحتى إذا قلنا إن شعرها كان أسود ناعما ، وثوبها الحبر الواسع الذى ترتديه لا يفلح فى إخفاء بروز صدرها ونحول وسطها وامتلاء ساقيها ، حتى إذا قلنا هذا قتلنا فاطمة قتلا . فآخر ما كان مهما فيها هو جسدها . أهم من هذا كله كانت أنوثتها .. أنوثة حية نابضة دائمة التفجر والتدفق ، أنوثة لا تدرى من أين تنبع وأين تكمن . ابتسامتها ابتسامة أنثى ، لفتتها إلى الخلف لفتة أنثى . الطريقة التى تخبط بها على كتف زميلتها ، إطراقها وهى تدعو أحد المارة ليساعدها فى رفع بلاص الماء على رأسها ، طريقة قضمها للقمة وإمساكها للرغيف، القلة فى يدها ، الماء حين ينسكب فى فمها نصف المفتوح ، الزاوية التى تميل بها الكرة ، قرطتها الخضراء الكرومبية الوحيدة حين تتعصب بها معوجة قليلا إلى اليمين مبينة بعض شعرها المسبسب الأسود ، غمازتاها حين تظهران فجأة وتختفيان فجأة وتحددان أجمل ابتسامة يفتر عنها ثغر ، ضحكتها وكيف تبدأ ثم بقاياها حين تنتهى ، صوتها المصنوع من أنثوية سائلة وكيف تخرجه بمقدار وكيف أحيانا إلى قطرات .. كل قطرة كلمة أو نبرة .. نبرة أنثوية مصفاة تكفى وحدها لتروى ظمأ عشرات الرجال .

وكانت فاطمة تثير الرجال ، أو على وجه الدقة تثير الرجولة فى الرجال .. وكأنما خلقت لتثير الرجولة فى الرجال ، حتى الأطفال . كانت تثير الرجولة الكامنة فيهم فكانوا إذا رأوها قادمة من بعيد أحسوا برغبة مفاجئة فى تعرية أنفسهم أمامها ، وكثيرا ما كان بعضهم يقدم على تنفيذ الرغبة فيرفع ذيل جلبابه ويتعمد المبالغة فى رفعه . ولا يفلح ضرب أو زجر فى نهيهم عن إتيان هذا الأمر فهم أنفسهم لا يدرون لماذا يعرون أنفسهم إذا رأوها ..

لذلك ما كان أشد محنة فرج ! كان فرج أخاها وكان مزارعا وحدانيا فقيرا لا يملك سوى بقرته ، ولا يعطيه الناظر إلا ثلاثة فدادين ليزرعها .. ومحاولاته كل عام ليزيد حصته نصف فدان كانت تبوء بالفشل الذريع . ومع هذا فقد كان فرج رجلا فى عز نعنعة رجولته يأكل فى الطقة ثلاثة أرغفة إن وجدت ، ويأتى على قلة الماء فى نفس واحد ، وسمانة رجله فى حجم الفخذ ، وكان حائرا منغص العيش والسبب أخته ، فقد كانت تحيا معه ومع امرأته ؛ وامرأته ذات الأنف الفاطس والوجه الأصفر كانت طيبة وإن لم تكن طيبتها تمنعها أحيانا من لفت نظر فرج إلى صدر أخته الذى تدعى أنها تتعمد هزه حين تمشى ، أو إلى الكحل الذى لا يفارق عينيها ، واللبان الذى توصى عليه كل ذاهب إلى السوق . ولم يكن فرج فى حاجة إلى لفت النظر إذ هو يرى ويسمع ويفور دمه كلما رأى أو سمع ، ولم يكن يستطع تأنيب فاطمة على شىء .. كانت ترتدى نفس ما يرتديه البنات وتتكحل كما يفعلن وتمضغ اللبان كما يمضغن ، ولم يلمحها أحد فى موقف مريب ولا ضبطت مرة متلبسة بخطأ ، وحتى حين ادعت زوجته أن السبب فى احمرار وجنتيها أنها تحكهما بالورق

الأحمر الذى تصنع منه صناديق الدخان الفرط ، بلل عمامته يومها بلعابه وظل يدعك وجنتى فاطمة حتى كاد يدميهما ولم تحمر العمامة ولا حدث لها شيء . ولم يفعل شيئا يومها أكثر من أن صوب إليها نظراته المحمومة المملوءة بالشك وراح يعنفها ويزجرها وفاطمة لا تعرف سببا لنظراته تلك . فهى تعرف العيب تماما وطالما حدثها فرج عنه وعنفها .. وهى لا تفعل العيب وليس فى نيتها أن تفعله بل هى تفضل الموت على فعله ، كل ما فى الأمر أنها كانت تحس بالناس يدللونها ويحبونها فكانت تفعل كما يفعل أى محبوب .. تتصرف بحرية وبساطة وبلا تعقيد . إذا أرادت أن تبتسم ابتسمت وإذا ابتسمت كان هذا عن رغبة حقيقية فى الابتسام ، وإذا أرادت أن تضحك ضحكت وخرج ضحكها بريئا نابعا من القلب . وكانت تعرف أن الناس يحبون جمالها فكانت تحرص على هذا الجمال فلا تخرج من عتبة دارهم بوجه غير مغسول أو بشعر مشعث منكوش ، وإذا اشتغلت فى الغيط لبست الجوارب التى تقترضها من أم جورج زوجة الناظر والتى تصنعها على هيئة قفازات تقى بها يديها من الأفرع وحز الشوك والأغصان . وإذا تكلمت حرصت على أن يخرج كلامها جميلا ليس فيه كلمة نابية أو تعبير قبيح . والناس جميعا أحبابها وأصحابها ، كلهم يحبونها وهى تحبهم كلهم ، ويدللونها وتتدلل عليهم ، ويريدونها غير عابسة فلا تعبس ، ويريدونها ضاحكة فتضحك وكل أملها أن يضحكوا لضحكها ويسعدوا بابتسامتها ودلالها . فلماذا يعنفها أخوها ويزجرها ؟ ولماذا هذه النظرات المشبعة بالسم منه ؟

والحقيقة أن فرج لم يكن يدرى لماذا .. كل ما فى الأمر أنه مسئول عن أخته وأنوثتها الصارخة ، وكل عين تمتد إلى أخته إنما تغور فى لحمه هو

وتدميه ، وكل أمله أن تتزوج فاطمة وتنزاح بمسئوليتها بعيدا عنه ، بل بعيدا عن العزبة كلها . ولكن فاطمة لم تكن تتزوج فخطابها قليلون بل تكاد تكون بلا خطاب ، فمن هو المجنون الذى يجرؤ على امتلاك كل تلك الأنوثة وحده ؟ وإذا تزوج ماذا يفعل بها والناس فى العزبة وما جاورها لا يتزوجون ليستمتعوا بالجمال ويقيموا حوله الأسوار ، إذ هم أولا لا يحيون لكى يستمتعوا بالحياة .. هم يحيون فقط لكى يبقوا أحياء ، ويتزوجون لكى تعمل الزوجة وتنجب أولادا يعملون . ولهذا ففاطمة باقية بلا خطاب .

والعزبة مليئة بالرجال والشباب ، وفاطمة كأى بنت فيها تعمل كالرجال تماما وتسرح إلى الغيط وتروح مع الأذان ، وهى ـــ دونا عن كل النساء والبنات ـــ تثير الزوابع أينما حلت ، ولهذا فإن قلب فرج مملوء بالخوف .. وخوفه يجعله يضحك إذ هو الذى يملأ العزبة برجولته الفارعة وطيبته ضحكا ، وهو الذى يملؤها حياة .. يبرطع وراء الرجال ويهزر معهم رغما عنهم ويعلمهم التنازل عن وقارهم الكاذب والنزول له فى « الباط » ، ويسابق الشبان فى العوم ، ويخطف القفف من فوق رءوس النساء حتى أكثرهن تحفظا ويجرى ويضحك ولا تشكو النساء ، وفى الأفراح يلبس جلبابه الأبيض ويلف على رأسه الحزام السكروتة ويحلق شعره وذقنه بالمكنة الزيرو ويرقص للعريس ، وينقط للعروسة وللناظر وللخولى وأهل العزبة ، ينقط بالفلوس التى باع بها قطنا سرقة من المخزن أو جوالا اختلسه وهو فى طريقه إلى الشحن ، ويصرف ويفنجر ويملأ العزبة صخبا وضجيجا . والكل رجالا ونساء وشبابا يحبونه ويعزونه وتعتمل أشياء داخل صدورهم وأشياء ، فأخته تكاد تثير طوب الأرض فتنة وأنوثة

والرغبات فى صدورهم تكاد تتفجر ، وفرج يأسرهم بطيبته وصداقته وضحكه ، فإذا مرت فاطمة خفضوا البصر ، وإذا لم يحتمل أحدهم وتأوه لكزه جاره .

ولذلك ظلت فاطمة كالفاكهة الناضجة المحرمة لا يقربها أحد ولا أحد يدع الآخر يقترب منها ، والقلوب تذوب حسرة ، وأعصاب الرجال وحتى العواجيز ترتجف رغبة كلما مرت ، ولكن فرج دائما هناك لا بد أن يتردد فى أذنك صدى ضحكة عريضة تأتيك من بعيد وتذكرك أنه هناك وأنه عيب ، وتعود حينئذ إلى صوابك فتذهب لتخطف العصر أو تتمشى لتشرب شايا عند الدكان .

واليوم ضبطوها فى الدرة مع غريب .

والحقيقة أنها لم تضبط يومها فقط ، ما أكثر ما ضبطت فاطمة فى الدرة ووراء إسطبل الوسية وتحت ماكينة الدراس مع رجال ، ولكنه ضبط مع إيقاف التنفيذ — فالأيام كانت تثبت أنها شائعات .. مجرد شائعات كان لا بد أن تنطلق وراء فاطمة إذا مرت كما تنطلق الحسرات . وسكان العزبة لم يكونوا أشرارا ولا حاقدين — كانوا فى الواقع أناسا طيبين يحرص كل منهم على الآخر مثل حرصه على نفسه ، حتى أوز هم كان طيبا لا خبث فيه تخرج جماعته من كل بيت فى الصباح مكاكية مزغردة ، وتتجمع قريبا من الجرن وتأخذ طريقها إلى الترعة فى قافلة ضخمة ، ويظل الأوز يلعب ويستحم ويعلم أولاده العوم حتى تئوب الشمس إلى المغيب فتأخذ مئات الأوزات طريقها إلى العزبة ، تدخل من البوابة ويتوجه كل أوز إلى بيته من تلقاء نفسه ، وحتى لو أخطأت أوزة غريرة طريقها وذهبت مع أوزة الجارة ، فما أسرع ما تجد بابك تطرقه الجارة ومعها الأوزة الضالة حتى قبل أن تكتشف أنت أنها ضلت وضاعت .

وأمام فاطمة ، أهل العزبة رعايا جمالها مدلهون بحبها ، إذا كان الفرح حظيت باهتمام يفوق ما تحظى به العروسة . ولعل هذا كان السبب فى خوفهم الشديد على فاطمة : كانوا خائفين عليها من العيب وكأنهم لا يصدقون أن أنثى جميلة مثلها ممكن أن توجد ولا ترتكب العيب . بل إنهم من كثرة خوفهم عليها حددوا الشخص الذى يمكنه أن يرتكب العيب مع فاطمة .. حددوا غريب بالذات ، وغريب كان ابن عبدون ، وعبدون مع أنه كبير فى السن إلا أن أحدا لا يقول له يا عم .. فقد كان رجلا عصبى المزاج يدمن « المضغة » والقهوة السادة ، وكلمة والثانية وتجده طابقا فى خناقك . حتى الناظر كان يخاف منه ومن خلقه الضيق ويتجنب إثارته . وعمره ما قال لأحد كلمة حلوة ولكن شطارته كلها تظهر إذا حلت بالعزبة كارثة ما ، حينئذ يقف كغراب البين على الترعة وقد أمسك بذيل جلبابه من الخلف ويمضى يشتم ويسب ويبصق مضغته ويشبع أهل القرية لوما وتأنيبا وكأنهم هم المسئولون عن وقوع الكارثة . غير أنهم كانوا لا يقيمون لعصبيته وسبابه وزنا فقد كانوا يعرفون أنه من الداخل أبيض ، فقط طبعه هو الذى يغلب .

أما ابنه غريب فرجال العزبة كانوا لا يرتاحون إليه وكذلك نساؤها ، فقد كان ولدا قليل الأدب فارغ العين يربى قصة من شعره ويظهرها مسبسبة من طاقيته الصوف البيضاء . وسبب ضيق الناس به أنه كان يغوى النساء ، والأدهى من هذا أنه كان ينجح فى الإيقاع بهن .. وفى هذا لم يكن يحترم جارا ولا زوجة خال . كان أسمر فاتح السمرة وبالرغم من قبح خلقة أبيه كان وسيما لا تمل العين رؤية ملامحه ، وله طريقة لذيذة فى نطق الكلام مع أنه كان قليل الكلام . كان صوته يخرج غليظا بريئا فرحان وكأنما هو مراهق حديث البلوغ . ولم يكن يبدو أهبل كمعظم شباب الأرياف .. كان ولدا

حدقا معتدا بنفسه سريع الفهم فهلويا نظيف الجلباب يعمل كالمكنة طول النهار ويغنى المواويل ، وعنده عدة شاى ويعزم ويشدد فى العزومة . فإذا جاء الليل لا يحتمل المبيت فى دارهم ويؤثر النوم فوق كومة تبن الوسية العالية حيث يدفن نفسه ، ويظل يتلمس أفخاذه وصدره ، ويحكى لأصدقائه الذين يبيتون معه .. يحكى لهم عن أمور النساء التى هم أجهل الجهال بها والذى هو فيها صاحب الباع الطويل . وكان جريئا لا يخجل وعينه فارغة .. أول ما ينظر إلى المرأة يبدأ بالنظر إلى سيقانها . ونظراته كانت تربك ففيها لمعة سخرية دائمة أو لعلها ضحكة لم تنطلق . كانت نظراته هكذا رغما عنه وليس له يد فيها ، ولكن المرأة كانت تحس إذا نظر إليها هكذا أنه يفهم مايدور بخلدها ، فإذا كان مايدور بخلدها عيبا وهذا هو الحال فى معظم الأحيان ارتبكت وخيل إليها أنه عراها ، وتحاول حينئذ أن تغطى نفسها فترتبك أكثر ، ومن كثرة ارتباكها تقع ويكسبه وقوعها اعتدادا أكثر ، فتزداد لمعة الجرأة الساخرة فى عينيه ويزداد عدد من يقعن له .

ولا بد أن غريب كان فيه شيء غريب ، شيء لم يكن يوجد فى بقية الرجال . لعله ذكورة زائدة أو لعله شيء آخر ، فقد كان يكفى أن ترى المرأة من نساء العزبة قفاه أو (دكة) سرواله وهو يعمل حتى تشهق وكأنها رأت رجلا عاريا . ولم يكن يبالى فى وسائله .. كل الطرق إلى المرأة كانت عنده حلالا . فى الفرح يحشر نفسه بينهن فيجمدهن أمامه .. وفى ماكينة الطحين كل شطارته أن يحمل القفف للنساء ويدق لهن القادوس . حتى المريضة لم يكن يعتقها ، ولولا خوفه من بندقية أبو جورج الناظر لحاول فى الليل زيارة الست أم جورج ، وكان الناس إذا اشتكوا لعبدون أبيه ثار فى وجوههم ولخبط خلقته وقال لهم بفظاظة :

ــ حداكم إياه . آنى متبرى منه . اعملوا فيه اللى بتقدروا تعملوه ..

وكانوا فى العادة لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا .. فغريب وإن كان قصير القامة إلا أنه كان قويا كفحل الوسية يستطيع أن يرفع ترس الساقية الحديد بيد واحدة ويقطم رقبة الرجل باليد الأخرى ، كل هذا وعيناه تلمعان نفس لمعتها الساخرة .

كان هو أكثر الذكور ذكورة ، وكانت فاطمة أكثر الإناث أنوثة ، ولهذا كان من الطبيعى جدا أن تقرن الشائعات بينهما . ومع هذا ما كان أبعد ما بينهما .. ففاطمة كانت تتجنبه لشهرته بقلة الأدب وفراغ العين وكان هو يخافها عن بعد ، فهو وإن كان ند لخادمة الناظر أو شفيعة الأرملة أم العيال ، ففاطمة ليست واحدة منهن . إنها فاطمة .. كل النساء كوم وهى كوم .

كان أحيانا يزعم للشبان الغارقين حوله فى التبن أنها تحبه وترسل له المراسيل ، ولكنه كان أول الساخطين على نفسه من أجل مزاعمه تلك . كان يعمل فى الغيط كالرهوان ويكتسح النساء بنظراته وذكورته فتخر له النساء .. وزينة بنات العزبة فى الأفراح والأسواق ، ولكن أمام فاطمة كان عاجزا كل العجز ، وفاطمة من ناحيته خائفة كل الخوف . حتى إذا قال لها العواف ودق قلبه آلاف الدقات وهو يقولها كان ردها يأتى مضغوطا لا عافية فيه ، هى خائفة منه خوفها من العيب وهو خائف منها خوفه من العجز ، والعزبة سادرة فى إقرانه بها وإقرانها به ، وفرج سادر فى ضحكه وذر صداقته فى العيون ، وسادر فى اكتساب محبة غريب حيث يكمن خوفه الأكبر ، وكل هذا يجرى من تحت إلى تحت أما فى الظاهر فالناس لبعضها والعزبة صغيرة والناس فيها عائلة واحدة كبيرة ، وبيت عبدون ثالث بيت إلى يمين بيت فرج ، وحتى حوادث ضياع الأوز قليلة .

ولكنهم كانوا جميعا يتوقعون دائما أن يحدث شيء ما ، شيء لا بد أن يحدث .. مثل أن يستيقظوا فى منتصف ليلة على طلقة ، أو تأتيهم من الغيطان صرخة تقول : ضبطوها فى الدرة مع غريب .

* * *

وقد حدث ..

والغريب أن أحدا لم يفاجأ بما حدث ولم يستنكره .. كلهم أخذوا الأمر على أنه شيء مسلم به ، إن كان بالأمس لم يحدث فها هو اليوم قد حدث . حتى أطفال العزبة — وللأطفال مجتمعهم هم الآخرين وإشاعاتهم وآراؤهم الصغيرة فى الناس الكبار — حتى هؤلاء أحسوا أن فاطمة قد ارتكبت أخيرا ذلك الشيء المحرم الذى طالما حذرهم منه الآباء والأمهات .. ارتكبت العيب .

وعلى هذا حين وجدوا فرج قادما من الغيط من بعيد ، ورأوا عمامته مخلوعة ورأسه عاريا لأول مرة وصديريه مفتوحا وسرواله ملطخا ببقع الطين بينما وجهه مصفر وشاربه يرتجف وعيناه فى لون الدم .. حين رأوه قادما من بعيد هكذا انزووا فى ظل حائط الإسطبل وهم يكادون يحسون بفطرتهم هول الكارثة التى حاقت به . وحين دلف من بوابة العزبة ساروا وراءه عن بعد يتابعونه صامتين حتى وجدوه يدخل داره وينهر ابنه الذى كان يخبط على صفيحة صدئة ، ثم وهو يطلب من امرأته فى صوت خطير لا يكاد يسمع أن تأتيه بالجوزة ، ثم وهو يتناولها ويعب من دخانها عبا وينفث من صدره سحبا كثيفة تصدر عن الفرن المبلل بالأحطاب .

وحين بدأ بعض الرجال يتسللون إلى الدار تشجع الأطفال وتسللوا هم الآخرين ، ولكنهم وقفوا قريبا من العتبة يرمقون ما يدور فى الداخل خائفين .

ولم يكن يدور فى الداخل شىء يخيف .. كان فرج جالسا أصفر لا يتكلم يرص كراسى الدخان ويشرب . وكان الرجال حوله ساكتين لا يعرفون ماذا يقولون ، وحتى إذا تململ أحدهم وأهاب به ضميره أن يقول شيئا يخفف به من حدة الهول فإن فرج كان يمد له غابة الجوزة ليشرب ويسكت ، فالموقف ليس فى حاجة إلى كلام . فأخيرا جاء اليوم الذى توقعه فرج وظل طول عمره يتوقعه .. أخيرا حدث الشىء الذى كثيرا ما فكر فيه وغلى الدم فى عروقه وهو يفكر فيه . كان كلما رأى جسد أخته يتلوى فى الثوب الأسود الواسع المهلهل ، أو كلما رأى قطعة من جسدها ظاهرة من ثقب الثوب ، كلما رآها تضحك أو تتكلم أو حتى تأكل كان يحس بصدره يضيق فجأة ويختنق فيصوب إليها نظرات كالمسامير المحمية ، أو يضحك ضحكه الواسع العريض الذى لا بد تلمح فيه خوفه الرهيب من شىء لا بد أن يحدث . بل كثيرا ما حسبها بينه وبين نفسه .. ترى ماذا يفعل لو حدث لا قدر الله أن ...؟

وكان شعره يقف كلما حسبها ويعود ينظر إلى فاطمة نظرات تغور بها فى سابع الأرض ، وها هو الحادث قد حدث وأصبح عليه الآن أن يأخذ موقف الرجل الأخ ، عليه الآن أن يقتلها ويقتل غريب . يقتل فاطمة أخته التى حملها وهو يعدى بها المصارف حين كانت صغيرة والتى قالت له أمه وهى تموت : وصيتك فاطمة يا فرج ، ويقتل غريب .. الكلب الذى آواه وسقاه على حسابه واحتضنه ، والذى طالما توقع أن يخونه وقد خانه ..

أجل ! الموقف ليس فى حاجة إلى كلام .. إنه فى حاجة إلى دم . كل ما فى الأمر أنه لا بد من التثبت حتى لا تلتف خطيئتهما حول رقبته . إنه قادم على إضاعتهما وإضاعة نفسه وامرأته وأولاده فلا بد أولا أن يتأكد ، فليعب

الدخان ويسكت ولينتظر قبل أن يمسك السكين . والقرار بارد لا رحمة فيه ولا أمل .. ففرج من أهل العزب وأهل العزب متهمون أنهم متساهلون فى أخلاقهم عن أهل القرى ، ولكنه سيريهم أن أهل العزب لهم هم الآخرين أصول وأنهم أعدى أعداء العيب ..

أما فاطمة فسرعان ما هلت من بعيد على العزبة وحولها سرب من نسائها وبناتها فى أثوابهن القديمة السوداء ورقعهن الملتفة حول رءوسهن ، مكونات كتلة غامقة من السواد لها عشرات الأذرع والرءوس تتحرك صوب العزبة فى تصميم خطير وتثير سحابة واطئة من الغبار .

وجرى الأطفال يستقبلون الموكب .. كانت فاطمة فى الوسط وكان وجهها أبيض . لأول مرة انقلبت سمرتها الجميلة إلى بياض شاحب . ولم تكن تبدو فاتنة كعادتها ، وكانت تعقد رأسها بشالها الأسود كالحزانى وملامحها لا تتحرك وكأنما هى ميتة أو حالا ستموت .

وحدثت ضجة لدى اقتراب الموكب من العزبة وراحت النسوة يتناقشن فى أصوات رفيعة حادة كما يتناقش الرجال ، والبعض يشير بتحويدها على بيت الخولى بينما الأخريات يتحدثن عن الأصول وعن أن مكانها الطبيعى هو بيت أخيها. وحدث الشد والجذب والصراع وأخيرا أدخلنها فى بيت الخولى القائم فى ركن العزبة ، وبقى الأطفال فى الخارج ينتظرون .

أما غريب فقد قالوا إنه طفش واختفى فى المزارع وأنه قد لا يعود .

ولم يكن أحد فى العزبة يدرى ما يحدث بالضبط .. كان جو العزبة قد تعكر فجأة ولم يعد يرى فى جوها العكر شيئا . الرجال جميعا كانوا صامتين ، والنساء دعواتهن كانت تنهال على غريب ابتداء من يجيله ويخط عليه إلى طلبهن الملحّ من الله أن يختصه بداء لا يبرأ منه . ولكن حتى دعوات

النساء الرفيعة هذه لم تستطع أن تحرك قليلا أو كثيرا من الوجوم الثقيل الذى حط على العزبة وكل من فيها ، الوجوم الذى جعل حتى كلابها تكف عن النباح .

وفى بيت الخولى كانت الحلقة مستحكمة حول فاطمة والنساء ينهلن عليها بالأسئلة ، وطبعا قبل أن يسألنها كن واثقات أنهن لن يصدقن شيئا مما تقول .

قالت إنها كانت ذاهبة تحمل الفطار إلى أخيها فرج فى الغيط ، وحين مرت على القناية الكائنة فى حقول الذرة خرج لها غريب على حين بغتة وحاول أن يمسك يدها ويجذبها فقاومت وصرخت . وتسكت فاطمة عن حديثها التائه وتستحثها النسوة على المضى ، فتقول إن الناس جاءوا على صراخها وهرب غريب . ولكنهن لا يقتنعن ويطلبن المزيد فتقول لا مزيد . فيهززن رءوسهن محاولات أن يترجمن حكاية اليد الممسوكة هذه بكل ما يتسع له خيالهن ، بينما حمى لا ترحم قد ركبت كل واحدة فيهن لتعرف ما قد جرى وتتأكد . وكلما سكتت فاطمة .. وكلما شحب وجهها وبهت ازدادت حدة الحمى واشتدت . حتى الرجال الجالسون حول فرج بعيدا عن فاطمة وحلقتها كأنما أصيبوا هم الآخرين بنوع خفى من تلك الحمى تلمحه فى كلمة خارجة من فم طنيب تقول :

— صبركم بالله يا جماعة .. ما يمكن مافيش حاجة حصلت .

* * *

وشيئا فشيئا بدأ الشىء الذى حاول الجميع كتمانه قدر طاقتهم يظهر وكان سهم الله قد نفذ ، الأذهان كلها كانت معبأة ومهيأة ومتوقعة كلها أن يحدث ما حدث : إذا انفرد رجل أى رجل بفاطمة فعليه العوض فيها فما بالك

والذى انفرد بها غريب ؟ من يعمل هنا حسابا لفاطمة أو لرأيها والمقاومة التى قد تبديها ؟ إذا انفردت بغريب انتهى كل شىء . والمهم الآن هو التأكد من أن كل شىء حقيقة قد انتهى . حتى فرج وهو يقرأ ما يعتمل فى ضمائر الناس الخفية كان هو الآخر يريد أن يعرف النتيجة ، لا يعرفها ولكن ليتأكد أن فاطمة حقيقة لم تعد أخته وأنه أصبح حرا يستطيع أن يفعل بها ما يشاء .

والنساء — ويا لغرابة هذا — أكثر جرأة فى هذه الأمور من الرجال ، ولذلك ما أسرع ما قالوها لأنفسهن ولزوجة فرج التى كانت قد تركت الدار وذهبت تعدد على فاطمة وتبكى ، ولعمتها . وحين قالوا لفاطمة نفسها غضب وجهها وبهت بشدة وارتجفت فتحات أنفها وصدرت عن عينيها دمعات قليلة ، أقل من محتويات الليمونة إذا عصرتها وهى خضراء ، وصرخت فيهن أن شيئا مثل هذا لا يمكن أن يحدث ، وأنه والمصحف الشريف لم يلمسها . فقلن لها :

— مادام خايفة من الكشف يبقى لازم حصل حاجة .

ومرة واحدة امتلأت خدود فاطمة بدفقة دم ولم تستطع النطق ، هى التى كانت تظن نفسها ويؤكد لها الناس أنها لا تعرف معنى الخجل .

ولو أن هذا حدث فى قرية لحاول الأهل أن يستروا على ابنتهم .. ولكن الأمر يحدث فى عزبة ، الكل يعرف كل شىء عن الكل ولا داعى للإخفاء . وهكذا أصبح هم العزبة من صغيرها لكبيرها أن تعرف إن كانت فاطمة قد جرى لها ما لا بد أن كان سيجرى لها . وداخت فاطمة حتى أنهم رشوا على وجهها ماء وشمموها بصلة . داخت من هول المسألة ومن إحساسها بأنها متهمة بأعيب عيب وأن جميع أهل العزبة يناقشون أعز خصوصياتها هى الأنثى الملكة الحلوة ، يناقشونه عيانا بيانا وعلى مرأى ومسمع من أخيها

وأهلها ، وكل هؤلاء الذين كانوا يحبونها وتحبهم ويدللونها وتتدلل عليهم .

وطلبت من حلقة النساء أن يرحمنها .

وسكتن جميعا ورحن يرقبنها بعيون ذابلة كان قد غادرها الشك وامتلأت بيقين كالعيون .. ذابل وحزين .

وحينئذ قالت فاطمة بوجه جامد متحجر بينما دفقة الدم التى تصاعدت إلى وجهها تنسحب وتسقط إلى أقدامها قالت :

ـــ أنا مستعدة .

وفى تلك اللحظة كان فرج قد داخ من كثرة شرب المعسل على الريق ، وكان رأسه منكسا ويده تسند جبهته ولولا أنه رجل لحسب الناس أنه أرملة تبكى وتنتحب .

ولم يكن فى العزبة من يفهم فى هذه الأمور إلا صابحة الماشطة وهى لم تكن ماشطة محترفة . كانت تمتلك ماكينة خياطة قديمة تدار باليد وكانت تخيط أثواب النساء والرجال على حد سواء . وكانت متقدمة فى السن ولكنها تبدو صغيرة ووجهها أبيض وشكلها طيب حنون كشكل أى أم ، ولكنها حين تتكلم يفضح صوتها ما تخفيه ملامحها فتحس أنها امرأة مجربة عركت الحياة بنسائها ورجالها على حد سواء .. وحينئذ لا تطمئن إليها .

وحين أبدت فاطمة استعدادها كان مفروضا أن يبعثن فى طلب صابحة الماشطة ولكنهن ترددن . فهن يردن معرفة الحقيقة .. وصحيح أن صابحة تفهم فى هذه الأمور وستعرف حتما كل شيء ولكنها قد لا تقول الحقيقة إذ هى متهمة فى نظر الرجال والنساء وحتى الأطفال . فهى صحيح الخياطة الوحيدة فى العزبة وهى التى تفصل للجميع أثوابهم ، إلا أن مسألة وجودك فى منزلها حتى ولو رآك الناس وأنت تقيس الجلباب مسألة لا يستريح لها كل من يراك ، إذ من المعـــروف أن صابحة ليس لديها مانـــع من أن

تصنع من نفسها وبيتها ستارا قد يلتقى وراءه الرجل بالمرأة حيث هناك سبب وجيه لوجود كليهما معا ، ولكن أحدا لم ير بعينه شيئا . وقد يكون هذا صحيحا وقد يكون مجرد إشاعات باطلة ، ولكن الثابت أن صابحة فيها شك وممكن أن تعرف ولا تقول ، وممكن أن تقول خلاف ما تعرف .

وقالت امرأة فرج :

ـــ مافيش إلا الست أم جورج .

ووافقت النساء فى الحال .. فأم جورج هى الست الوحيدة فى العزبة ، وهى أيضا الوحيدة المتعلمة التى تجيد القراءة والكتابة ، ثم إنها من البندر ولا بد أن أهل البنادر يعرفون كل ما لا يعرف فيه أهل العزب والقرى والفلاحين .

وتدافع الأطفال حول الموكب ووراءه حين خرج من بيت الخولى فى طريقه إلى بيت الناظر ، ومضى الموكب يتعثر فى حزنه وحماسه فى طرقات العزبة المليئة بأكوام الأتربة وقش الأرز ، والدنيا نهار والشمس قريبة من الأرض منكسة .. وفاطمة فى الوسط لا يزال وجهها متحجرا وعيونها مفتوحة كعيون العميان وقلبها غائص تحت أقدامها ، كلما خطت خطوة أحست أنها تطؤه وتطأ معه كل خجلها العذرى وكل أحاسيسها الحلوة ، أيام كانت طفلة وأيام كبرت وأيام كانت تغنى فى الأفراح وتحلم بأن يكون لها فرح وزفة وجلوة وليلة حنة حيث يترقب الجميع خروجها ترقبهم للملكة ، واليوم هم يترقبون خروجها مئات العيون تنظر لها وتحملق فيها ، مئات .. لا بل آلاف ، الدنيا كلها عيون مفتوحة كالفناجيل لا تنظر إليها وإنما تنظر إلى أخص خصائصها بلا حياء وبوحشية ، وتخترقه وتهتك شرفها ويسيل دمها ويقطر لدى كل خطوة تخطوها ولدى كل حجر تتعثر فيه وهى حافية عارية ذليلة لا يرحمها أحد .

وحاولت صاحبتها حكمت أن تجذب الشاش فوق وجهها وتغطيه ، ولكن فاطمة أزاحت الشاش كاشفة وجهها . ما فائدة إخفاء الوجه وجسدها كله عريان ؟

والموكب الحزين المتحمس ذو عشرات الأذرع والرءوس يمضى ووراءه ذيل من الأطفال والكلاب الجائعة ، يمضى ويثير سحب غبار ، ويشتت قوافل الأوز البيضاء ، ويطير العصافير والحمام آخذا طريقه إلى بيت الناظر .

* * *

فى ذلك الوقت كان عم ضرغام خفير الجرن يجعجع ولا أحد يستمع إليه ، فالناس قد تعودوا على جعجعته .. كان هو الصعيدى الوحيد فى العزبة ومن يوم أن جاء وهو يخفر الجرن . وتعدى السبعين وهو لا يزال يخفره ، رأسه ضخم أسود وملامحه غليظة دائمة التكشير وشاربه الأبيض طويل غزير كشوارب الكلاب وشعر رأسه أكرت أبيض ، وعرقه يسيل على الدوام بطريقة تجعل وجهه الأسود دائم اللمعان وكأنما يعرق زيتا . وكان لا يتكلم إلا جعجعة لا يفهمها أحد وكأنها هبهبة كلب ، ولا يجعجع إلا إذا اقترب أحد من الجرن حتى ولو بحسن نية ، وقد عاش فى العزبة ثلاثين عاما لا يعرف أحدا ولا يأخذ على أحد . الكل يعرف اسمه وهو لا يعرف أى اسم ، كل ما هنالك إذا كان الواحد منهم بعيدا عن الجرن فليس له شأن به ، أما إذا اقترب أحد جعجع له حتى يبتعد .

ولم تنقطع جعجعة عم ضرغام فقد كان يجعجع لغريب . كان غريب قد عاد من هروبه واختبأ فى « حلة » الذرة فى الجرن ليرقب عن كثب ما يدور فى العزبة ويتنسم أخبار فعلته الشنعاء ووجهه الأسمر قد اسود وطاقيته قد كبسها فوق رأسه بطريقة لا تظهر معها (قصته) وهو خائف جاد نادم متوجس

وكأنما قد أفاق لنفسه بعد غفوة سنين ، وأدرك أن قلة أدبه وفراغ عينه وغوايته للنساء كانت عيبا ما بعده عيب . ولمح فاطمة وموكبها وهو فى طريقه إلى بيت الناظر وازداد وجهه سوادا ، وبالغ فى إخفاء نفسه داخل كومة الذرة الحطب وكف عن النظر..

كان من فرط خوفه من فاطمة وبعدها فى نظره قد ازدادت رغبته فيها ، وكلما ازدادت رغبته ازداد بعدها عنه واستحالة وصوله إليها . ولم يكن يريد بها شرا ولم يكن يريد منها قليلا أو كثيرا . كل مناه أن يقول لها العواف مرة فترد عليه بلهجة يحس معها أنها ترد عليه .. عليه هو غريب ، ولكنها لم تكن تفعل، وكان يعزى نفسه بإيقاع نساء أكثر ومع هذا يزداد رغبة فى أن ينال من فاطمة كلمة أو نظرة أو حتى لفتة تلقيها إليه عبر الكتف أو من تحت ثقل المقطف. ولم تكن تلك أول مرة ينتظرها فيها غريب وهى فى طريقها إلى غيط أخيها حاملة المشنة وفيها الإفطار تخب فى ثوبها الأسود عايقة على رأسها وكأنها برنيطة ، وريحها الحلو يهب على الغيط والشجر والخضرة والترع فيكاد يملأ الجو بعطر كعطر النسيم يوم شم النسيم . لم تكن تلك أول مرة ينتظرها فيها ويراها وهى لا تراه وهو خائف أن تراه ، ولكنها كانت المرة الأولى التى يتمنى أن تراه فيها، المرة الأولى التى يتمنى أن يلتقى بها وكأن الأمر صدفة، ويفعل معها ذلك العيب الذى أرقه وأقض مضجعه فوق تبن الوسية، عيب أن تقول لبنت ليست أختك أو أمك : ازيك يا فاطمة . فترد عليك بخجل لا ترد به أمك أو أختك؟

ولكنها ما كادت تراه خارجا من الذرة حتى تجمدت فى مكانها وكأنها رأته عاريا.. كما ولدته أمه ، وكأنها رأت العيب يخرج لها من الذرة .. العيب الذى كواها فرج بنظراته محذرا إياها منه ، وإذا بالمشنة تسقط منها وإذا بها تصرخ بأعلى صوتها، وإذا بها بالدنيا تنقلب وإذا به يطلق لساقيه الريح ويهيم على وجهه فى الغيطان.

* * *

وعلى عكس ما توقعت العزبة رسمت الست أم جورج علامة الصليب على صدرها وأبدت أسفها البالغ ورحبت بأن تفعل ما فى وسعها لكشف الحقيقة مقسمة بالمسيح الحى أن تجعل زوجها يحبس غريب فى النقطة ويسلط عليه الضابط ليربطه فى ذيل الحصان ويعلقه على عامود التليفون . كانت الست أم جورج معروفة بصلاحها وتقواها وأدبها حتى أن أحدا لم يكن يعرف اسمها الحقيقى .. وكانت ترغم زوجها أبو جورج الناظر على أن يصحبها للكنيسة فى البندر القريب صباح كل أحد رغم تذمره من هذا العمل ، وهو الذى يقضى مساء كل سبت يعب كاسات العرقى عند بنايوتى البقال فى القرية المجاورة الذى أحال بقالته إلى خمارة . وأم جورج قصيرة بيضاء شاحبة البياض شعرها مفلفل بالشيب وفى منتصف ذقنها ثلاث نقط موشومة . وكانت تعرف فاطمة وتسمع عنها معجبة بجمالها ، بل كثيرا ما كانت ترسل فى طلبها لتأتى كى تساعدها فى عمل صوانى البسكويت الذى يفطر به أبو جورج ولا يرضى سواه . بل أحيانا كانت ترسل لها فقط كى تجاذبها أطراف الحديث وتأخذ من فمها الحلو كل أخبار العزبة النسوية وهى المحرم عليها أن تختلط بنساء العزبة . ولولا فارق السن لأصبحت صديقتها الصدوقة .

وأفظع خجل هو الذى أحسته فاطمة وهى تدلف إلى بيت الناظر لا مطلوبة ولا مرغوبة ، وإنما شرفها معروض على الست أم جورج .. الست التى كانت بالأمس فقط تقبلها فى شفتيها بطريقة غريبة وتقول لها إنه لولا الدين لخطبتها لأخيها الذى يعمل صرافا فى البحيرة .

تسمرت فاطمة فى مكانها على العتبة ولكنهن دفعنها دفعا لا مجاملة فيه حتى سقط الشاش من فوق رأسها . وتولت أم جورج طرد جورج من البيت وإغلاق الباب الخارجى وباب الحجرة الداخلى وشيش النوافذ

وزجاجها ، وكانت مقاومة فاطمة مقاومة الخجل الفطرى ولكنهن تكاثرن عليها وأرقدنها على السرير بالضغط والجذب وتولت إحداهن تقييد يديها ، وأمسكت امرأتان كل بساق من ساقيها ، وامتدت أيد كثيرة .. أيد معروقة جافة .. حتى بقايا الملوخية التى عليها جافة ، وامتدت عشرات العيون الصادقة فى بحثها عن الشرف والمحافظة عليه ، امتدت كلها .. انغرزت وقلبت وتفحصت حتى وهى لا تدرى علام تبحث . وأم جورج وقد تولاها ارتباك عظيم وكأنها المكشوف عليها لا الكاشفة ، تنهر النسوة بلا فائدة وتطمئن فاطمة بلا فائدة أيضا ، والشد والجذب والصرخات المكتومة تدور فى صمت وفى همس مروع ، وسكون الترقب قد خيم على الحجرة وامتد منها إلى البيت ووصل الصمت إلى رءوس الرجال حول فرج ، وإلى المتناثرين قريبا من الدوار وعند المكنة وفى الغيط ، الذين كانوا يتابعون كل شىء يدور داخل منزل الناظر حتى دون أن يروه .

كل شىء هدأ وسكت ما عدا جعجعة عم ضرغام التى لم يكن يحفل بها إلا واحد فقط .. عبدون أبو غريب الذى كان قد أخذ طريقه إلى الجرن وقد رفع ذيل جلبابه من الخلف آملا أن يتحدث إلى عم ضرغام لينفس عن نفسه ويلعن فاطمة وابنه وأهل العزبة لكائن ما حتى لو كان عم ضرغام .

وفجأة انطلقت زغرودة من الحجرة الداخلية ترددت على أثرها الزغاريد فى المنزل ثم فى الخارج ، والألسنة تردد :

— سليمة إن شاء الله والشرف منصان .

ولحظتها فقط رفع فرج رأسه المنكس ، ولأول مرة كان يجرى فيها الدم ، ولأول مرة نطق وقال :

— هاتوها .

وبعد لحظات ومع أن عم ضرغام قد كف عن جعجعته ، إلا أنه ما كاد يكف حتى كانت العزبة تشهد أعظم ضجة قامت فيها ، عند بئر الساقية القديمة العميق الذى يزيد عمقه عن أطوال ثلاثة رجال يقفون فوق رءوس بعضهم . عند البئر كان عبدون يمسك ابنه غريب من زمارة رقبته ويحاول بكل قوته العجوزة أن يجذبه ليدفعه ويغرقه فى البئر .. بينما عشرات الرجال يمنعونه ويحاولون تهدئة خواطره . وكان عبدون كلما جذب ابنه ووجد نفسه عاجزا عن تحريكه من مكانه ازداد هياجه وغضبه وانصبت اللعنات من فمه كالحمم . وكل من كان يرى عبدون فى موقفه ذاك كان لا بد أن يؤمن أنه حقيقة يريد إغراق غريب فى البئر وأنه جاد فى تنفيذ ما يريد . ولكن كان هناك شيء ما لعله فى طريقة زعيقه ، لعله فى نوع الكلمات التى كان ينتقيها ليشتم بها ابنه ، كان هناك شيء ما لا بد تلمحه وتحس معه أنه فى أعماق نفسه غير خجل من ابنه ، بل أكثر من هذا ممكن أن يكون فخورا أن ابنه هو الذكر وأنه هو المتهم بالفتك .

أما فى بيت فرج فقد كانت هناك مذبحة .. كان فرج يضرب فاطمة بالتقصيرة التى يصحن بها البن ، وكانت فاطمة تصرخ وزوجته تصرخ خوفا عليه أن يقتلها ونساء الجيران يصرخن ، والرجال كثيرون داخل البيت وخارجه يحاولون منعه بلا فائدة ، وفرج كالوحش الهائج يريد حقيقة أن يخلص على أخته .

ولكن ربما فى ضبط قوة الضربات التى ينهال بها على فاطمة ، وربما فى البريق الذى يملأ عينيه والذى لم يكن بريق غضب خالص أو فرحة خالصة ، كنت تلمح شيئا .. فصحيح أن فاطمة لم تخطئ وشرفه منصان ولكنه لا بد أن يقوم بعمل ضخم كبير قاس يرد به على الآف الخواطر التى لا بد قد دارت فى الرءوس وعلى كلام الناس ، وكلام الناس كثير .

وطبعا لم يغرق عبدون ابنه ولم يقتل فرج أخته . مالت الشمس للمغيب كما تعودت أن تميل ، وعاد السارحون فى تلك الغيطان يسحبون البهائم ويحملون عشاءها فوق الحمير ، وبدأت الأدخنة ترتفع من أسطح البيوت الطين وشقوقها وهبت روائح التقلية والزيت المقدوح تفتح الأنفس للعشاء ، وصلى الرجال المغرب ، وانتهى صعود النساء وهبوطهن إلى السطوح ، وفرغن من تبييت الدجاج وعلف البهائم . وما كاد العشاء يؤذن حتى كان الهدوء الهائل الخالد قد خيم على العزبة من جديد ، وحتى كان كل ما يتعلق بما حدث قد نوقش وأعيد نقاشه حتى فرغت الجعاب وثقلت الرءوس .. وبدأت ذبالات المصابيح تخفت وتتوارى ، وبدأ النوم يزحف مع الظلام ، وبدأت الأجساد تتمدد تعبة لا حراك بها .

وحين أصبحت فاطمة وحدها .. حين نام الجميع وبقيت هى محطمة مستيقظة بدأت تبكى . لم تكن تريد .. ولكن الدموع بدأت تسيل رغما عنها صانعة قناتين لامعتين يصلان ما بين عينيها وأرض « البحراية » التى كان فرج قد حكم عليها أن تنام فيها بلا حصيرة أو غطاء ، ثم بدأت تنشج وبدأ جسمها يهتز ، بل بدأ قفص الفراخ الموضوع بجوارها يهتز ويهز الفرن والبيت والعزبة كلها ويكاد يوقظ النائمين . كانت تبكى بكاء من يتألم ألما لا قبل له به ، بكاء الذى جرح جرحا عميقا وجاء الليل عليه فبدأ يحس بالألم .. الألم الكاوى الذى لا يرحم .

* * *

وحاول أولاد الحلال فيما تلا هذا من أيام أن يقنعوا فرج بقبول غريب عريسا لأخته ، ولكن فرج رفض رفضا مانعا باتا ملأهم باليأس .

أما غريب فقد كف حديثه عن فاطمة تماما ، بل كف من يومها حديثه عن كل النساء وحلق قصته وأصبح يصلى ، ولكنه كان يضبط أحيانا وهو يحوم حول العزبة ويتوقف عند النافذة المفتوحة على بيت فرج .

أما فاطمة فقد حبسها فرج فى البيت ومنع خروجها وشغلها رغم حاجته الشديدة إلى يوميتها . ولم يقلق فاطمة هذا فى شىء .. كانت عازفة عن الدنيا لا تريد الخروج ، والحيوية المتدفقة التى كانت تبرق فى عينيها وخدودها ولفتاتها كأنها نضبت فجأة ولم يبق لها أثر وتحولت إلى حيوان بليد كخروف الضحية لا تبتسم وتكاد لا تتحرك ، وكانت إذا تحدثت خرج حديثها ذليلا فقد كبرياءه وحلاوته والأنوثة التى تقطر منه .

ولكن هذا لم يدم طويلا .. فلم تبق فاطمة حبيسة البيت إلى الأبد ، ولم تطل صلاة غريب ، ولا استغنى فرج عن برطعته وضحكه . إذ بعد أسواق كثيرة وأسواق كان كل ما حدث قد وضعه أهل العزبة فى خزينة النسيان وأغلقوا عليه بالضبة والمفتاح ، وكان أولاد الحلال قد تكفلوا بمصالحة عبدون وابنه على فرج فأصبحوا يتحادثون ويتبادلون العمل ويتزاملون كالعادة . وربى غريب قصته وعاد يحدث أصحابه عن النساء فوق تبن الوسية ، ولم يكن حديثه .. يخلو من مرارة إذ كانت فاطمة قد عادت إلى الخروج جميلة كما كانت ، معووجة المنديل رافعة ذيل الثوب ، تخطر إذا مشت وتدوّخ إذا تلفتت وتعافى كل من يلقاها ، إلا هو — لا عن عمد — ولكن كأنها لا تراه ، وكأنما قد محى من الوجود ..

عادت فاطمة تنظر وتتحدث وتبتسم وتطير العقول وكل شىء فيها لم يتغير . ولكن الناس كانوا يعجبون .. فلا بد أن فاطمة قد اكتسبت شيئا جديدا لم يكن لها ، أو أنها لا بد فقدت شيئا أصيلا كان لها .. الشىء الذى

كان يلون وقفتها ومشيتها وضحكتها ، الشيء الذى يجعلها تبدو ملكا للجميع تحب الجميع ويحبها الجميع . الشيء الذى يكسبها شفافية ونقاء والذى كان يجعلك تحس إذا ابتسمت أنها حقيقة تبتسم وإذا غضبت أنها حقيقة غاضبة ، كانت قد فقدت براءتها وأصبحت تستطيع أن تنظر دون أن تنظر ، وتضحك دون أن تريد ، وتريد الشيء وتخفى رغبتها فيه .

بل أصبحت تستطيع إذا ما لمحها فرج خارجة ذات يوم من دار صابحة الماشطة وأخذها إلى بيته ، وأغلق عليها باب القاعة وأمسكها من ضفائرها وشدد عليها وسألها عما كانت تفعله عند صابحة ...

أصبحت تستطيع إذا ما حدث هذا أن تقول :

ـــ كنت بقيس التوب . او ع كده .

وتجذب نفسها وضفائرها من قبضته بعنف غريب ، وتقف فى الركن تعيد النظام إلى شعرها وتواجهه .. بعيون مشرعة حلوة ، لا تنخفض ولا تخجل .

سره الباتع

ـ ١ ـ

لم تكن علاقتى بالسلطان تتعدى مجرد نظرة غير محبة للاستطلاع ألقيها عليه كلما مررت به فى ذهابى وإيابى ، نظرة سريعة كأنما لأطمئن بها فقط على وجوده هناك فقد كان علامة رئيسية من علامات البلد ، مثله مثل محطة السكة الحديد وسراية آل ناصف والبقعة المسكونة التى قتل فيها سيد إبراهيم .

ولكنى ذات يوم اضطررت أن أشغل نفسى بالسلطان ، فقد فزت يومها بأول نجاح فى حياتى ونقلت من السنة الأولى الابتدائية ، وفرحتى بالنجاح يومها كانت أكبر من كل فرحة أحسست بها لأى نجاح حدث لى بعد هذا ، فرحة تمنيت معها أن أعود من المدرسة إلى بيتنا على جناح طائر لأزف الخبر إلى جدى الأكبر والد جدى ، وكان عجوزا جدا له ظهر شديد الانحناء وتجاعيد تبدو من كثرتها وتناسقها وكأنه ولد بها .

وما كاد جدى يسمع الخبر حتى قال لى فى صوته الجاد :

ــ أوف النذر حالا .

وكنت قد نسيت حكاية هذا النذر تماما .. فقد حدث خلال العام أن انتابتنى حالة يأس وأنا أذاكر واعترانى شبه يقين أننى مهما فعلت فلن أنجح أبدا ، وكدت أبكى ساعتها ولكنى ذهبت إلى جدى وصنعت له قهوة زائدة السكر كما يحبها ، وحملتها له خلسة (إذ كان يحب القهوة ، وكان جدى

الأصغر ابنه يمنعه عن شربها فكان بيننا شبه اتفاق : أن أسرق له البن والسكر وننتحى مكانا قصيا نصنع القهوة فيه مقابل أن يحدثنى هو بعد أن يزن رأسه عن(زمان وأيام زمان الحلوة) . يومها حملت له الفنجال ، وانتظرت إلى أن شربه كله شفطة ولحس كل البن المترسب فى القاع ، ثم سألته إن كان يعتقد أنى سأنجح .. والشيء الغريب أنى كنت متأكدا أن جدى الأكبر لا يعرف ما هى المدارس وما هو النجاح ، ومع هذا فحين قال لى لحظتها إننى سأنجح بإذن الله أحسست أننى لا بد سأنجح وكدت أطير فرحا . غير أنه اشترط لنجاحى يومها أن أنذر للسلطان حامد نصف دستة شمع أوقدها فى ضريحه .

ولم يتركنى إلا بعد أن نذرت النذر أمامه وأعدته مرارا حتى أطمأن إلى أننى لم أخطئ فى قوله .

ولم تكن مشكلة أن أحصل على ثمن الشمع ، فقد كنت ناجحا وطلبات الناجح خاصة فى يوم نجاحه لا تلقى معارضة تذكر .

ولم أغفر لنفسى أن الشيطان يومها راودنى حين ذهبت إلى الدكان ، وفى الحقيقة لم يكن هو الشيطان .. كان « البرطمان » الذى يحتوى على كمية هائلة من « الكراملة » ويرقد على جانب البنك هو الذى راودنى .

وقسمت العرب عربين كما يقولون ، واشتريت بنصف ما معى ثلاث شمعات وبالنصف الآخر « كراملة » .

وبينما كنت آخذا طريقى إلى حافة « الجبانة » حيث مقام السلطان ، كنت لا أزال أؤنب نفسى .. بل أحيانا كنت أتصور أن السلطان حامد سينتقم للثلاث شمعات التى اغتصبتها من نذره بأن يزورنى فى المنام مثلا ، أو يصيبنى بداء الصفرة .

ولست أدرى أكان هذا هو السبب فى اضطرابى أم شىء آخر كان السبب ، فقد بدأت أحس باضطراب شديد حين أشرفت على الجبانة. ورأيت مقام السلطان حامد من بعيد . وشىء غريب هذا .. فآلاف المرات رأيت مقام السلطان حامد من بعيد دون أن أحفل به ، حتى لون الضريح لم أكن أعرفه ، ولا كان يهمنى من السلطان فى قليل أو كثير ، ولكننى مع هذا كنت مضطربا حتى فكرت أكثر من مرة فى أن أولى الأدبار وأطلق ساق للريح عائدا إلى بيتنا ، خاصة وأن مسألة النذر هذه لم تكن قد دخلت إلى عقلى . وأنا متأكد أن السلطان هذا ليس له أى علاقة بنجاحى ، وأنه لم يساعدنى فى الإنجليزى ولا غششنى فى مسألة القسمة المطولة . والنذور والعفاريت وشم البصل يوم شم النسيم أشياء لم أكن أؤمن بها لا لأننا كنا قد أخذنا فى المدرسة أنها بدع ورجس من عمل الشيطان ، ولكن لأن الناس كلهم يأخذونها كالقضايا المسلم بها ، فكيف أفعل أنا هذا ؟ وما فائدة تعليمى حينئذ وبدلتى ؟

ورغم شدة اضطرابى فلم أرجع لا خوفا من جدى ولكن خجلا من نفسى وخوفا من أن أبدو أمامها كالجبان ، والظاهر أننا ونحن أطفال نخجل من الفرار أيضا مثلما يفعل الكبار .

وهكذا ظللت أخاف وأتحدى الخوف وأتقدم تدفعنى الرغبة فى القيام بتجربة جديدة ، حتى وصلت إلى مقام السلطان حامد . كان قائما فى ركن من الجبانة وبجواره طريق مقطوع لا يمر به أحد . وكانت أول مرة أرى فيها الضريح عن قرب ، ولم يكن ضريحا بالمعنى المفهوم .. كان أهل بلدنا يسمونه المقام ولهم حق ، فلم يكن يشبه من قريب أو بعيد أضرحة أولياء الله فى القاهرة ، وكنت قد زرتها مع أبى ورأيت روعتها وسجاجيدها السميكة

الفاخرة وشبابيكها المذهبة ونجفها الكبير والرائحة الغريبة الغامضة التى تملأ جوها وتوحى بالرهبة والخشوع والإجلال . أما مقام السلطان فقد كان عبارة عن حجرة قديمة وكأنها مبنية منذ الأزل ، ذهب الطلاء عن كل جدرانها وبقيت الحجارة الحمراء بارزة متآكلة كضلوع الميت العجوز . ولم يكن يميز المقام عن بقية المقابر إلا أنه مبنى من الحجر ، إذ أن معظمها مبنى من الطين ، والأغنياء وحدهم هم الذين يطلونها بالجير ويكتبون أسماء موتاهم عليها ، يكتبها لهم عم محمد البنا بطلاء الزهرة وبخطه العاجز الركيك .

ثمت فرق آخر بين المقام وبين القبور ، فدونا عنها كانت هناك أشجار كافور طويلة قد زرعت حول المقام . ويبدو أنها زرعت أيضا منذ الأزل فقد كانت طويلة طولا لا حد له وجذوعها سميكة لا يستطيع عملاق أن يحتضنها ، وكانت مزروعة بنظام حتى بدت كالسور العالى المهيب .

وكان كل شيء يدعونى إلى أن أنتهى من مهمتى بسرعة وأعود .. فالعصر يضيق والظلال تمتد بشكل مخيف ، وحقول القمح واسعة كبحر أبيض لا شاطئ له ، والناس فيها مجرد نقط غامقة صغيرة لا تكاد ترى .

ودرت حول المقام . لم يكن له سوى باب كالح قديم ونافذة واحدة يتيمة كانت لا بد هى النافذة التى حدثنى عنها جدى . وتقدمت منها ، ولكن قبل أن أصل إليها فوجئت ببحيرات وأنهار من الشمع المتجمدة قد ملأت الأرض . كان الشمع الذى سال من النذور على مر الزمن قد ملأ حافة النافذة وسال على الجدار حتى غطى أحجاره العارية ، ووصل إلى الأرض .

وأدركت أن آلافا قبلى لا بد قد نذروا للسلطان حامد ، ومن يدرى ربما ملايين (والملايين فى لغة الأطفال لا تعنى دائما ملايين) .

وكدت أضحك على سذاجة أهل بلدنا الذين ذابت نقودهم واختلطت بالرمال .. لأجل ماذا ؟ لأجل هذا السلطان الذى لا خادم له ولا مسجد ولا مستجيرون .. ولا حتى ضريح يوحى بالاحترام ؟

كدت أعود وأحتفظ بالشمع لنلعب به أنا وأصحابى فى الليل ونوقده ونسهر حوله ، وكم يكون مسليا وجميلا ! بل أنّبت نفسى لأننى أضعت القرش فى الشمع ولم أشتر به « كراملة » هو الآخر ، وسمحت لنفسى أن تصنع مثلما يصنع أهل بلدنا الجهلة .. الذين لا يقرءون ولا يكتبون .

ولكنى يومها احتفظت بشمعة واحدة فقط وأوقدت الاثنتين ، لست أدرى لم ؟ ربما تنفيذا لتعليمات جدى ليس إلا ، وربما رغبة فى تقليد أهل بلدنا .. فقط فى تقليدهم ، بل لماذا لا أعترف وأقول إننى بعد أن قرأت الفاتحة ودعوت لجدى ولوالدى ، نذرت للسلطان إن أنا نجحت فى العام التالى أن أوقد له دستة شمع بأكملها ؟

ورغم أننى قلت لنفسى وأنا عائد أننى نذرت الدستة فقط لتفاؤلى بمسألة النذر ، إلا أننى من يومها بدأ السلطان حامد هذا يشغل علىّ تفكيرى بشكل ما .

كان أحيانا يصعب علىّ ذلك الولى الفقير المدفون فى تلك البقعة النائية الموحشة ، وأحيانا كنت أفكر فى المؤمنين به الفقراء مثله الذين يتمنون أمنياتهم الصغيرة الطيبة ، ويرفعون بصرهم إلى السماء وينذرون للسلطان حامد ويحقق السلطان أمانيهم ، فيسرعون إلى نافذته ويشعلون شمعاتهم ، وليلة وراء ليلة تضىء نافذة السلطان حامد بشمعة .. أمنية صغيرة تحققت وقلب فقير رأى لحظة سعادة ولو لليلة ، وأحيانا كنت أفكر فى الكمية الهائلة من الشمع المتجمد بجوار المقام كيف لم يسرقها أحد ، كيف لا والسلطان

ليس له خادم يحرسه والطريق إليه خال من المارة ، والناس فى بلدنا لا يتركون طوبة تنفع ولا حجرا إلا قلقلوها وحملوها إلى بيوتهم ؟

أحيانا كنت أفكر فى تجريد عصابة من أصحابى للسطو على الشمع ، وأحيانا كنت أخاف ، وأحيانا كنت أسمع اسم السلطان .. لم أكن أسمعه كثيرا ولا مسبوقا بتكبير أو محفوفا بتقديس خطير ، وإذا جاءت سيرته لا يتوقف الواحد من أهل بلدنا عن الكلام مثلا ويقرأ له الفاتحة بخشوع ، ينفض الواحد منهم بلغته وهو يستعد للقيام ويقول :

— معلش .. أهه كله من عضم النهار .. شى لله يا سلطان حامد شى لله .

أو تتراجع الولية من الولايا أمام مقطف السمك وتقول لعم على الصياد :

— بكام ؟

فيقول :

— بعشرة .

فتعود تقول :

— وللسلطان حامد بكام ؟

فيخفض عم على حينئذ وجهه ويغلق عينيه وكأنما غلب على أمره ويقول :

— عشان السلطان بتمنيه وعشانك انتى بتسعة .

أو يرفع الرجل جوال الطحين على رأس زوجته ويقول وهو ينتعه :

— إيدك يا سلطان .

وكنت أعرف أهل بلدنا جيدا .. كانت لا تخيفنى منهم وجوههم المكشرة على الدوام ولا ذقونهم التى تشوك أو نظراتهم التى تظن أنها خالية من الرحمة والشفقة . كنت أعرفهم تماما وأعرف أنهم لا يقولون ما يعتقدونه إلا بينهم

وبين أنفسهم ، أما أمام العمدة أو الموظفين يقولون كلاما عاليا كثيرا ويحلفون الأيمان المرتفعة المغلظة . وإذا سألهم الغريب عن شيء قالوا عكس ما يضمرونه . هم لا يخرجون ما فى أعماقهم إلا رغما عنهم .. فى كلماتهم المتناثرة ، فى همساتهم الخافتة وراء ظهور موظفى الحكومة ، فى حديث الرجل إلى زوجته بعد العشاء حين يركن بظهره إلى الحائط ويمدد ساقيه على طولهما ويقول :

ــ ليلة امبارح يا بت حلمت خير اللهم اجعله خير ، إن السلطان حامد جانى وقال لى انت نايم للظهر ليه ؟ قوم الشمس طلعت ، قوم ..

— ٢ —

وتعودت أن أرثى لأهل بلدنا هؤلاء ، كنت قد زرت السلطان ورأيت مقامه عن قرب ، ولم أحس برهبة ماولا اقشعر جسدى أو وقف شعرى أو ظهرت لى كرامة من كراماته . أربعة جدران قديمة تكاد تنهار .. ماذا فيها حتى يستقر صاحبها فى أعماق صدورهم وحتى يتحدثوا عنه كما لو كان كائنا حيا ضخما يحيا فى مكان ما ؟ ماذا فيه حتى يتحدثوا عنه بلا تكليف هكذا كما يتحدث الجار إلى الجار ؟ وكنت أعرف خطورة هذا الحديث فالفلاحون لا يرفعون الكلفة إلا بصعوبة شديدة ، وإذا خاطبوك بلا ألقاب وتحدثوا إليك كما يتحدث الجار إلى الجار كان معنى هذا أن احترامهم لك يرتفع إلى مرتبة التقديس .

والحقيقة بدأت تنتابنى الغيرة من السلطان حامد .. بدأت أحسده على تلك المكانة التى يحتلها فى قلوب الناس مع أنه لم يكن يملك لهم حولا

ولا قوة . هذه الكمية من الحجارة القائمة عند حافة الجبانة كيف يكون لها كل هذا الاحترام والتقديس ؟

وقلت لنفسى ذات يوم : ربما أكون مخطئا .. وربما هناك شيء داخل المقام هو السبب فى تلك المكانة . ولم أكن — من شدة استخفافى بأمر السلطان — قد اهتممت بإلقاء نظرة على الداخل من خلال النافذة حين كنت أوقد الشمع .. وأنبت نفسى كثيرا لأنى لم أفعل ، وقررت أن أذهب وأرى المقام من الداخل . وحين خطرت لى تلك الفكرة لم أتحمس لتنفيذها فى الحال فلم تكن حكاية السلطان حامد كلها تهمنى إلى تلك الدرجة ، كانت مجرد أفكار تعنّ لى إذا جاءت سيرته وتشغلنى قليلا ثم تمضى وأعود أنا إلى ما كنت فيه .

غير أننى فى صباح يوم الجمعة سمعت امرأة ماشية فى الشارع تندب حظها وتكاد تولول وهى تقص لكل من تستوقفها من النساء قصة ابنها المريض ، وتختم قصتها كل مرة بدستة شمع للسلطان إن هو طاب . وكدت أخرج لها وألعنها وأفهمها أن سلطانها حامد هذا لا علاقة له بمرض ابنها ولا بركة فيه ولا يملك حتى أن يمنع البلى عن مقامه . ولكننى لم أفعل بل سألت نفسى بصراحة لماذا يضايقنى شيء كهذا ، وما الضرر فى أن تنذر له نذرا ؟ هل سيمنع نذرها الشفاء عن ابنها إن كان سيشفى ؟ وأدركت أن حماسى كان فقط لأنها ذكرت اسم السلطان حامد ولم تذكر اسمى مثلا ، حماسى كان مبعثه هو تلك المكانة الهائلة التى كنت يوما فيوما أحس بالسلطان حامد يحتلها فى قلوب أهل بلدنا .. كنت أخاف على نفسى منها ، وأخاف أن يأتى اليوم الذى أومن أنا الآخر به وأقدسه دون أن أعرف سبب الإيمان به وتقديسه .

وتأكيدا لاستخفافى به قررت أن أذهب فى الحال وأرى مقامه من الداخل وأرى السر المزعوم ، وأشبع بعد هذا سخرية من السلطان وأهل بلدنا على حد سواء ..

ولكن لا أدرى ماذا حدث ، فحين أصبحت قريبا من المقام ورأيت أنهار الشمع المجمد وبحيراته أحسست أنى مقدم على شىء حرام ، وكأننى سأعبث بشىء يخص أهل بلدنا أجمعين وهم غائبون . إحساس اقشعر له جسدى ولم أستطع أن أتغلب عليه وكأنك فى اجتماع عام حافل وتهم أن تمزق علم المجتمعين ، وعلى هذا وقفت فى مكانى مترددا وقد أحسست لأول مرة أنى فى سبيلى إلى القيام بعمل غير مشروع ، وتلفت حولى مرارا مع أنى كنت متأكدا من خلو المكان وأن أحدا لا يفكر فى المجىء إليه خاصة فى الصباح .

وخفت .

فقد أدركت لحظتها فقط أن السلطان حامد هذا مارد كبير ، والبركة فى أهل بلدنا الذين جعلوه هذا المارد الكبير . فمع أنى كنت واقفا فى مكانى لا أستطيع الاقتراب من النافذة إلا أننى لم أكن أتصور أن المسألة ممكن أن تبلغ هذا الحد وأننى فعلا لا أجرؤ على الدنو . وربما الخوف هو الذى دفعنى إلى النظر إلى مكان السلطان حامد من جديد .. كان كل شىء كما هو فى المرة السابقة .. الحجرة البالية القدم والجدران البارزة الأحجار بغير طلاء ، ولا شىء بالمرة يخيف وكل ما أراه يدفع إلى الاستخفاف ، وتقدمت من النافذة متلصصا .. كانت أعلى من قامتى وكان علىّ لأرى ما فى الداخل أن أتشبث بحديدها وأرفع نفسى .

وأمسكت بالحديد .. كان ناعما زلقا من آثار الشمع المتجمد ومرة واحدة رفعت نفسى ثم فى الحال هبطت وقلبى يدق . لم أكن قد رأيت شيئا

غير ظلام فى ظلام ومع هذا خفت ، فالظلام فى النهار وفى داخل السلطان حامد شيء يخيف ..

وكنت لا أزال أمسك بالحديد فى انتظار أن أجمع أنفاسى وألقى نظرة أخرى ، ولم يكن لدى أية فكرة عما يمكن أن أجده فى الداخل ، ربما المقام خال .. ربما لا شيء غير الظلام .

وبقوة رفعت نفسى رفعة عالية ودرت بعينى دورات سريعة مذعورة .. ووقف شعرى من الرعب ، ومن كثرة رعبى لم أستطع الهبوط وتجمدت يداى على حديد النافذة بينما أغلقت عينى عن أن تريا ورحت أصرخ فى فزع وتركت نفسى أسقط على الأرض وأنا ألهث وأكاد أموت .

لقد رأيت السلطان حامد نفسه فى الداخل .. كان ضخما جدا أضخم من الجمل وله رقبة طويلة جدا وبارزة من جسده الضخم بطريقة مخيفة وتنتهى بكتلة خضراء كبيرة تلمع فى الظلام . كان السلطان باركا فى الداخل يتلمظ ويكاد يمد رقبته الطويلة ويقضم رأسى .

ظللت مخفيا رأسى فى حجرى وعيناى مغلقتان وأنا لا أستطيع الجرى أو التفكير أو حتى قراءة بسم الله الرحمن الرحيم ، وحولى آلاف العفاريت التى لم أومن بها قط .. وخدام الفناجين وإبليس ، وشقيقاتى اللائى تحت الأرض وكل ما ارتكبته من ذنوب وكل ما سخرت به من معتقدات .

واعتقدت أنى حالا سأموت .. ولكنى عجبت حين مر وقت طويل ولم أمت ، ثم ضحكت من نفسى لأنى ظننت أنى سأموت ، ثم فتحت عينى ورأيت أشجار الكافور العالية والحقول الممتدة البعيدة والناس الرائحين الغادين كنجوم النهار ، وكل شيء غير خائف .. وكل شيء يسخر منى ومن خوفى .

والشيء الذى لم أكن أتصور مطلقا أن يحدث وجدت نفسى أفكر فيه : لماذا لا ألقى على المقام نظرة أخرى ؟

تطلعت إلى النافذة وترددت ، ولم ألبث أن وجدت دافعا أقوى منى يدفعنى للإمساك بحديدها من جديد ، ربما الهلع وربما حب الاستطلاع وربما الاستخفاف بأمر السلطان . كنا جيلا معفرتا كما يقول عنا آباؤنا وأجدادنا ، والمسائل الغامضة مثل العفاريت وخلافها مسائل تدور على ألسنتنا فقط ونتذكرها ساعة الغرق ، ولكنا لا نؤمن بها فى أعماق قلوبنا . وكان آباؤنا يقولون عنا هذا لأننا لم نكن نخاف مما يخافونه ، وحتى إذا خفنا كان خوفنا يدفعنا إلى السخرية بالشيء الذى نخاف منه ، كنا جيلا معفرتا كف عن لعب الكرة « العميو » بيده وأصبح يلعب الكرة بقدمه . ويمضى فوق قضبان السكة الحديد المحرمة دون خوف أن يظهر له القطار فجأة ويدهمه ، وحتى إذا ظهر له القطار كان فقط ينتحى جانبا وقد جهز له فى يده زلطة يقذفه بها إذا مر ثم يعود يجرى فوق القضبان .

— ٣ —

وتبينت أنى كنت على حق ، فالذى كان باركا فى الداخل لم يكن هو السلطان حامد بكل كان قبره ، والرقبة الطويلة كانت رقبة القبر ، والشيء الأخضر الذى يبرق كان عمامته .

بل أكثر من هذا كانت الكسوة الموضوعة على القبر كسوة قديمة باهتة لا تكاد تستطيع أن تتبينها من كثرة ما علاها من غبار . وكانت « القراضة » قد تولت نهش حروف الآيات القرآنية المكتوبة بالقماش فوقها ، وكانت

رائحة العطن تشيع من المكان ، والظلام الرابض تحس أنه ليس ظلاما ولكنه نور قديم من طول ما مكث مدفونا تحول إلى ظلام .

وعدت أدراجى ومعى قطعة كبيرة من الشمع اقتلعتها من الأرض ونفضت عنها الرمال على أمل أن تصلح لشىء ما . ولكننى حين عدت إلى بيتنا احترت ماذا أصنع بها . صنعت منها كرة ثم قلة ، ثم أفقت لنفسى فوجدتنى أصنعها على هيئة قبر له رقبة طويلة وعمامة خضراء .

وأعجبنى التمثال الذى صنعته للقبر إلى درجة استخسرت معها أن أغيره أو ألقيه وأصبح كل همى أن أحتفظ به فى مكان أمين ، وظللت أفكر حتى وجدت أن أحسن مكان له هو طاقة من الطاقات التى تستعمل فى برج الحمام.

وكنت أعجب لنفسى طوال اليوم وأستغرب لماذا لم أعد أفكر فى السلطان حامد ، ولماذا يرفض عقلى أن يخوض فى مشكلته . كنت أحس به غريبا عن نفسى تماما وكأنه لم يخطر لى أبدا وكأننى لا أعرفه ولا يهمنى أن أفكر فيه . وأحيانا كان يدفعنى العجب وأحاول أن أرغم نفسى على التفكير فيه فلا أستطيع .

وقلت لنفسى ربما أفكر غدا .

ولكن الغد جاء ولم أفكر فيه .

بل مضت مدة طويلة جدا ، ربما عام وربما أعوام والسلطان حامد لا يخطر لى على بال .

أتأخذ عقولنا أحيانا كل هذا الوقت الطويل لكى تفكر فى أمر هام ؟.

لقد استيقظت ذات صباح وأنا أفكر فى السلطان حامد وكنت أفكر فيه بطريقة أخرى .. فهل كان هذا السلطان واحدا من أهل بلدنا ؟ ومن أى عائلة هو إن كان ومن هم أحفاده وذريته من بعده ؟

ووجدتنى أسأل كبار المعمرين فى بلدنا هذا السؤال ، وأجمعوا كلهم أن السلطان حامد بالتأكيد لا يمت بصلة إلى أحد من بلدنا وربما يكون غريبا ؛ ولكن أحدا على وجه الدقة لا يعلم .. كل ما يعرفونه أن بلدنا والحمد لله لم ينشأ فيها ولى من أوليائه ولا بنى لأحد من موتاهم مقام .

ولم يتصور أحد ممن سألتهم أية دهشة كانت إجابته تحدثها .

فإذا كان السلطان حامد غريبا فلماذا اختار بلدنا دون سواها ليدفن فيها ؟ ثم بنى له هذا المقام الحجرى وكل قبور بلدنا من الطين ..؟ ومن اشترى الكسوة ؟ ومن صنع له تلك الرقبة الطويلة ووضع فوقها العمامة ؟ ومن زرع هذا الكافور الطويل ؟

أغرب شيء أن المعمرين فى بلدنا كانوا يرون أسئلتى هذه ويسمعونها ، وأحس أنهم يحسبوننى مخبولا لأننى أعجب من هذه الأشياء وكأننى أسأل عمن حفر البحر أو اختار اسم بلدنا أو حدد ميزان النقطة ، لماذا أسألهم عن شيء كان موجودا قبل أن يولدوا .. وشبوا فوجدوه قائما .. ومن المحتمل أنه سيظل قائما إلى يوم الدين ؟

وأنا بدورى كنت أعجب وأظنهم هم المخرفون المخبلون ، إذ كيف لم يتبادر إلى أذهانهم أبدا أن يعرفوا لماذا دفن السلطان حامد فى بلدنا دون سواها ، ولماذا يبنى له مقام ؟

وكان النقاش بيننا يطول .. أنا بجلبابى الأفرنجى ورأسى العارى ولسانى الذى لا يقف عن الخوض فى أى موضوع ، وهم بلحاهم الطويلة ونظرهم القليل وعرفهم الذى يعرف حدوده ويعرف أين يقف ومتى يسير .. حتى جدى كم صنعت له فناجيل القهوة ، وكم انتظرت حتى يزن رأسه وتعود الابتسامة إلى وجهه ، وما أكاد أفتح فمى أسأل حتى يقول :

ـــ قلت لك ميت مرة فكر فى اللى ينفعك انت .. فكر فى كتبك . مالك انت ومال الحاجات دى ؟

وإذا أحسست أنى أوشك أن أثير غضبه أدعى أمامه أنى أقتنعت ، ولكنى لم أكن أقتنع .. فالأسئلة التى كانت تراودنى عن السلطان حامد لم يكن يستطيع عاقل أن يسكت عنها ، كائن ضخم عملاق مثله له فى كل بيت جدار ، وذكره على ألسنة الناس باستمرار ، ومكانته لا يرقى إليها أكبر واحد من الأحياء أو الأموات ، ومع هذا لا يعرف عنه أحد شيئا ولا يريد أن يعرف عنه ؟ أليس هذا أمرا محيرا يدفع إلى الجنون ، أو بالقليل يدفع إلى الغضب ؟

وماذا يدفع إلى الغضب أكثر من أن أسأل واحدا من شباب القرية أو رجالها مثلا ، وأضع أمامه تلك المشكلة المحيرة فيقول :

ـــ أهه شى لله ياأهل الله .

وبدأت أضيق بالسلطان حامد وأضيق أكثر بأهل بلدنا ، وكأنه جمع ثروة من حرام لا حق له فيها ، وكأنهم تنازلوا له عن قروشهم ليجعلوه غنيا ، هكذا بكل سذاجة وعبط .

وذات مرة سألت الشيخ شلتوت صاحب الكتاب فلم أظفر منه بطائل ، وكنت أعرف أنى لن أظفر من وراء سؤاله بطائل ، فما سألته مرة عن شىء إلا وصاغ إجابته بطريقة لا تسمن ولا تغنى من جوع . سألته لم يحتل السلطان حامد تلك المكانة الضخمة عند الناس فقال لى :

ـــ لأنه كان رجلا تقيا ورعا .

قلت : إذن أنت تعرفه ؟ لا بد أنك سمعت عنه .. قل لى !.

فقال : كل ماأعرفه أنه كان لا بد صالحا وإلا لما كان له مقام ..

قلت : ولكن مقامه فقير قديم ليس كمقام السيدة زينب أو الحسين ..

قال : المسألة مش بضخامة المقام يا بنى ، المسألة بضخامة المقام عند الله .

فقلت : ماذا أفعل إذن لأعرف سر السلطان حامد ..؟

قال : بالوصول .. بذكر الله .

ووجدتنى أفكر فيما قاله طويلا مع أن ما قاله لم يشف غليلى ، بل وجدت نفسى أتردد كثيرا على كتابه ومناقشاتى معه لا تقربنى قليلا أو كثيرا من أمر السلطان ...

وقلت لنفسى ربما كان صحيحا ما يقوله ، وربما كان سر السلطان حامد لا يفتح إلا لبعض الناس .. للصالحين ، وربما لو ذكرت الله ووصلت ، أصل إلى مكان أرى منه السلطان وأرى أمره بوضوح . وبدأت أتردد على حلقة الذكر التى يقيمها الشيخ شلتوت فى بيته كل ليلة اثنين ولم أهضم ذهابى إلى هناك أبدا ، وكنت أذهب سرا حتى لا يرانى أحد زملائى ويسخر منى .. كنا نجتمع عشرة رجال أو أكثر أندس بينهم وهم يرمقوننى بترحيب كبير ، إذ أن حلقتهم قد ضمت أخيرا أحد المتعلمين ، والمتعلمون كان بينهم وبين الدين — على حد قول الشيخ شلتوت بحر من سم ودم . كنا نجلس على الحصيرة ونستغرق فى التفكير فى الله ، ثم نذكره فى سرنا ، ثم نجهر بذكره ، ثم نتمايل لاسمه ، ثم يدفعنا الحماس إلى الوقوف ، ويمسك لنا الشيخ شلتوت المجلس وقد حمى ، وأصوات الرجال الخشنة تتصاعد من صدورهم فى تهدج باك يجأر فى طلب العفو والشجاعة والتوبة ، وقد اندمجت أنفاسهم المتلاحقة فى صرخة مبحوحة واجدة منغمة تقول : الله . الله . الله .

ولكنى انقطعت عن الذهاب فجأة فقد أدركت أن استغراق فى الذكر لا يمكن أن يوصلنى أبدا إلى حل للمشكلة ، وعلىّ أنا أن أحلها بنفسى إذا أردت لها حلا .

ثم إننى كنت قد فطنت إلى شىء .. فقد أدركت أن السلطان حامد ليس وليا من أوليا الله فالأولياء يسمونهم مشايخ ، فلماذا يسمونه هو السلطان ؟

ورحت أعجب كيف لم أفطن إلى تلك الحقيقة البسيطة الواضحة وضوح الشمس من قبل . صحيح كيف لم أفطن إليها ووقفت طويلا أتأمل هذه النقطة وأعذر أهل بلدنا الذين كنت أتهمهم بالعبط لأنهم لم يحاولوا أبدا أن يتساءلوا عن سر السلطان حامد . أحيانا يكون من الصعب بل المستحيل أن نفكر فى أشياء تعودنا ألا نفكر فيها وتعودنا أن نأخذها كما هى : فتعذيب الحيوانات حرام أما ذبحها حلال ، والمرأة تطلق شعرها والرجل يحلق شعره ، ولا تعامل الحافى بمثل ما تعامل به راكب العربة مع أن كليهما إنسان ، وأن يبدأ الواحد فى مراجعة إيمانه بالقضايا المسلم بها مسألة صعبة بل تكاد تكون مستحيلة .

— ٤ —

واعتقدت أن لن يدلنى على حل هذا اللغز إلا الأحمدى أفندى فهو يعرف كل شىء عن كل شىء ، ولا بد أن يكون لديه تفسير لحكاية السلطان الذى له مقام مع أنه ليس من أولياء الله . كان الأحمدى أفندى أول من لبس البدلة والطربوش فى بلدنا ، وأول من ركب القطار وسافر إلى القاهرة ، وأول أفندى لم يعمل فى الحكومة واشتغل رأسا فى البنوك والشركات . وكان قد

تعدى الثمانين وترك العمل نهائيا .. وأقام فى البلد على حس أفدنته القليلة ، وكنا كثيرا ما نصادفه سائرا فى البلدة بقامة معتدلة لا اعوجاج فيها ولا انحناء . وقد استبدل بالبدلة جلبابا أبيض نظيفا له جيب على الصدر ، ولكنه لم يتنازل عن الطربوش ولا عن ساعته ذات الكتينة التى تمد من عروة الجلباب وتنتهى فى جيب الصدر .

وكنا نحن الصبية والأولاد إذا صادفناه مارا ننتحى جانبا تأدبا ولا نجرؤ على النظر فى وجهه إلا من بعيد .. وجه قد اكتسى من طول ارتداء البدلة والطربوش ملامح جادة متزنة ، وشارب دقيق معتنى بكل شعره فيه ، وفم مطبق لا ينفك ، وأصداغ غائرة لا تسندها أسنان .. وكل شيء فيه جاد . كلامه جد وزعيقه جد وهزله جد أيضا ، ولم يكن يضحك إلا إذا تحدث مع العمدة .

وكانت جرأة كبيرة منى أن أذهب وأسأله فلا يليق بمثلى أن يخاطب الأفندية كبار السن من أمثاله ، تلك قضية أخرى مسلم بها فى بلدنا .

وانحنى الأحمدى أفندى ليضع أذنه ذات السمع الذى بدأ يثقل بجوار فمى الذى كان يتكلم فى تردد ولعثمة وخفوت .

وكلما ألقيت عليه السؤال قال :

— إيه ؟ بتقول إيه ؟

فأعيد السؤال ..

وأخيرا أدركت أنه سمعنى فقد اعتدل فى وقفته وأمسك بعصاة ذات العقفة بعناية ، وحدق فىّ بعينيه الضيقتين الغامقتين اللتين لو كانتا عينى لما استطعت أن أرى بهما أبدا . واشتد ارتباكى .

ولم أنظر إلى غير كتينة ساعته التى أدركت أنها بفرعين وأن بينهما حلية ذات بلورة خضراء ..

حدّق فيّ طويلا حتى فكرت أن أتركه واقفا فى مكانه وأجرى ولكنه قال :

ــ براوة عليك ياولد ! جدع اللى فكرت فى دى .. أنت ابن مين يا شاطر ؟

وازداد ارتباكى واضطرابى وأنا أشرح له ابن من أنا ومن أين جئت ، وحينئذ قال :

ــ بتسأل السؤال ده ليه ؟

قلت فى تردد وهو يستعيد كلماتى كلمة .. كلمة :

ــ علشان أعرف هو سلطان والّا ولى .

وقلب عصاه فوضع العقفة على الأرض وأمسكها من أسفلها وهو يقول :

ــ لا ولى ولا سلطان ولا دياولو ، اوع تصدق الكلام الفارغ ده ... سلطان حامد إيه ؟ أنا اعرف السلطان حسين سلطان مصر الله يرحمه ويحسن إليه ، أعرف السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين ، أعرف السلطان الغورى أعظم سلطان فى زمانه .. إنما سلطان حامد دا إيه ؟ دا حتى اسمه ما ينفعش لواحد سلطان .. ده تلقاه صعلوك ولا كان ولى ولا خلافه . دا انا اسمع انه كان بيدى عهود للنسوان فى أوضة ضلمة ، وكان ما يديش العهد الا وهو شارب قزازة كان يملى نصها سبرتو ونصها خل علشان يبقى طينة مطينة . إنما انا مبسوط منك .. أنت فى الابتدائية ؟ أخدتم انجليزى لغاية فين ؟ وبتاخدوا أجرومية والّا لا ؟ أنا مبسوط منك . انت باين عليك ولد نبيه . سلم على ابوك . قول له جدى الأحمدى أفندى بيسلم عليك .. ح تقول له جدى مين ؟

ولم يتركنى الأحمدى افندى يومها إلا بعد أن سألنى فى العربى والإنجليزى والأشيا والصحة وأثبت لى أن علمنا لا يساوى قلامة ظفر بالقياس إلى العلوم

أيام زمان .. وفى النهاية أوصانى أن أطرد من عقلى حكاية السلطان وإلا فإنه سوف يشكونى إلى أبى حين يقابله .

ولم أطردها من عقلى بل كبرت وأصبحت مشكلة عويصة . هذا الإنسان الغريب الذى ليس وليا من أولياء الله، لماذا خصه أهل بلدنا بهذا التكريم ؟ ولماذا بنى له مقام ؟ وكيف احتل تلك المكانة الهائلة فى صدور الناس دون أن يعرفوه ؟

هل هو السلطان ؟

وإذا كان سلطانا فعلى أى شىء كان سلطانا ؟ ثم إن كلمة سلطان كلمة كبيرة تكاد تساوى كلمة الملك .. فكيف يدفن سلطان كهذا فى بلدنا ، بلدنا الصغير الذى لا يعرفه أحد ؟ لماذا بلدنا بالذات ، وكيف يكون مدفن السلطان متواضعا إلى هذا الحد ؟

— ٥ —

وعلى الرغم من غرابة المشكلة وضخامتها فإنى لأعجب لنفسى كيف كنت أحيانا أنساها . كنت إذا فكرت فيها فكرت فيها ، وإذا نسيتها نسيتها ، وإذا فكرت فيها آليت على نفسى ألا أفكر فى غيرها ما حييت ، وإذا نسيتها ذهبت عن بالى تماما وكأنى لم أعرفها قط .

وأول الأمر كانت حين تخطر لى ولا أجد لها جوابا شافيا كنت أختنق بالضيق وأحس أنى أريد أن أقتل نفسى ، ففى تلك السن لا نحتمل أبدا أن يبقى السؤال إذا عنّ لنا بلا جواب . ولكن الضيق إذا زاد عن حده ينقلب إلى ضده . وكان ضيقى قد زاد عن حده حتى بدأت أنا الآخر أفضل طريقة

أهل بلدنا وأكاد آخذ السلطان حامد كالقضية المسلم بها ، ولا أهتم به أو بقضيته إلا كما يهتم أهل بلدنا بها ، ولا يكاد يخطر لى إلا إذا مررت على الجبانة مثلا ولمحت مقامه رماديا وحيدا بعيدا ، أو إذا وقع فى يدى قرش مكتوب عليه ضرب فى عهد السلطان حسين ، أو كان أحيانا يخطر لى فجأة وبلا سبب وكأن عقولنا تجتر أحيانا ما تختزنه فتعيده إلى وعينا فى ساعات لنكمل فحصه وطحنه .

ولكن ذات يوم عثرت على شيء مذهل غريب زاد المشكلة تعقيدا . فقد كان لنا نحن تلامذة بلدنا فريق محترم لكرة القدم .. فريق أول وفريق ثان ولم أكن فى كليهما . كنت شغوفا باللعبة ولكنى كنت أفضل التفرج ومراقبة اللاعبين .. ولهذا كنت أرافق فريقنا إذا ذهب ليبارى فريق بلدة أخرى . وكانت مباريات رسمية حقيقية ، نرسل « باصة » مكتوبة وموقعا عليها من رئيس الفريق ومدربه ، ويأتى الرد مكتوبا أيضا وفيه تحديد اليوم والساعة والمكان . وفى اليوم المحدد (غالبا صباح الجمعة) يخطط الملعب ويشترى اليوسفاندى والبرتقال للهافتيم ، وترسل الأحذية القديمة منذ الصباح الباكر إلى الجزمجى ليصلحها ، وتنفخ الكرة عند العجلاتى بقرش وتطلى بحبة طماطم لكى تبدو جديدة ، ونستعد للمباراة .

وفى يوم الجمعة ذاك كنا قد ذهبنا لنلاعب بلدة بينها وبين بلدنا مشوار . وكالعادة كان المكان الذى اختاره فريقها للعب قريبا من الجبانة ، فنادرا ما تجد فى قرانا مكانا فسيحا مستويا يصلح للعب إلا ذلك المكان الذى يقع على حافة الجبانة والذى يستعمل كجرن فى أيام الدراس .

وشات أحد لعيبتهم الكرة شوته « بوز » أرسلتها عالية بعيدة تخطت نطاق الملعب والجبانة واستقرت فوق بناية حجرية صغيرة كانت قريبة من المزارع . وفوجئت بأحد أفراد فريقهم يشتم اللعيب الذى شات وهو يقول :

ـــ دلوقتى مين ح يجيبها من فوق السلطان حامد ؟

وتركت تتبعى للمباراة نهائيا .. وما كاد يأتى الهافتيم حتى ذهبت أسأل أفراد الفريق الذى كنا نلاعبه . ومن كلماتهم المقتضبة اللاهثة عرفت أن بلدهم فيها سلطان حامد آخر له مقام يشبه إلى حد كبير مقام السلطان حامد فى بلدنا ، وله أيضا نافذة يسيل منها شمع أبيض متجمد ويصنع أنهارا وبحورا فى الأرض ، وهو الآخر تنذر له النذور ويستعان بيده وتخفض من أجله الأسعار . وسرعان ما اكتشفت خلال مباريات أخرى وأسئلة واستقصاءات بلا مباريات أن هناك سلاطين آخرين يكاد يكون لكل قرية فى إقليمنا سلطانها الخاص .

وكان هذا أكثر من أن أستطيع أن أفكر فيه أنا وكل بلدنا مجتمعة .

وما قابلت إنسانا سواء كان من بلدنا أو من غيرها إلا وسألته .. والشىء الذى كاد يفقدنى عقلى أنهم جميعا كانوا يأخذون الأمر بهدوء وبساطة ويستطيعون النوم بعد أسئلتى ، بل ويتناولون الطعام ويضحكون .. وكأن من الطبيعى أن يوجد لكل قرية سلطان له اسم واحد هو حامد ، سلطان خاص بمقام خاص ، سلطان لا يعرف أحد كيف دفن ولا من بنى له المقام ، سلطان شيطانى استيقظوا ذات صباح فوجدوا مقامه منتصبا عند حافة جبانتهم ووجدوا مكانته سامقة فى أذهانهم ..

كل ما ظفرت به كان إجابات غامضة تزيد من ثورتى وعجزى وهياجى ، فمن قائل إن هذا حدث من قديم الزمان ولا أحد يعرف سره ، ومن قائل إنه سلطان يمت بصلة القربى إلى أبى زيد الهلالى سلامة ، ومن قائل إنه سلطان واحد حقيقى ولكنه كتب فى وصيته أن تصنع له مدافن فى بلاد عدة يدفن فى واحد منها فلا يستطيع أعداؤه أن يعثروا أبدا على جثته .

ومن قائل إن السبب فى هذه اللخبطة كلها هى الحكومة وهى وحدها المسئولة .

من أى ملة هو ومن أى دين ؟

الله وحده يعلم .

لماذا تحبونه وتقدسونه وتنذرون له النذور إذن ؟

من يدرى ربما كان ذلك لحكمة تخفى على البشر .

ونحل جسدى وبدأت ألوان كثيرة تتابع أمام عينى إذا وقفت ، وأحيانا كنت أكلم نفسى ، ونظرت فى المرآة يوما فكدت لا أعرف نفسى .

وخفت ولعنت السلطان ولغزه واليوم الذى قدمت له فيه النذر . خفت أن أموت .. وأقسمت ألا أعود أفكر فيه . جعلنى أبى أقسم أن أمنع نفسى من التفكير حتى ولا بعد أن أخذنى أبى إلى الحكيم وقال لى الرجل السمين الطيب وهو يمسك يدى الناحلة بكفه الطرية التخينة الدافئة :

ـــ مالك يا بنى ؟

وخفت أن يعتبرنى مجنونا إن أنا قلت له ويرسلنى إلى السراية الصفراء فقلت :

ـــ ما فيش .

وفحصنى فلم يجد شيئا ، ولكنى انتهزت فرصة خروج أبى وخفت أن أجن إن أنا لم أقل له ، فترددت وأنا أسأله إن كان يعرف حلا لهذا اللغز ، وسألنى ما هو ذلك اللغز ؟ وقلت له كل شىء وختمت كلامى بأن ما أمرضنى هو أنى لم أجد حلا ولا تفسيرا .

وأطرق الرجل بوجهه السمين حتى تفرطح لغد الدهن المتهدل من عنقه ، ثم رفع رأسه ولم ألمح فى وجهه استخفافا ولا تكذيبا . كل ما حدث أنه رفع لى يده وقال بوجه جاد :

ــ دول إيه يا بنى ؟

وحرك أصابعه فقلت :

ــ صوابعك .

ــ كم صباع ؟

ــ خمسة !

ــ أنت متأكد ، عِدّ تانى .

ومع أنى كنت متأكدا تماما إلا أنى عددتها فعلا ووجدتها حقيقة خمسا ، فابتسم الرجل وقال :

ــ طب اوجد لى حل للغز ده . اشمعنى الواحد له فى كل يد خمس صوابع بس ؟ ليه ما يكونوش ثلاثة وليه ما يكونوش ستة ؟ اشمعنى خمسة بس ؟ جاوبنى .

ولم أستطع إجابته . وكان أبى قد حضر فشيعنا إلى الباب وهو يضع يده ذات الأصابع الخمسة على كتفى ويقول لى :

ــ يا بنى فيه حاجات كتير فى الدنيا دى مالهاش تفسير ، فاشمعنى نقيت حكاية السلطان حامد عشان تموت نفسك عشانها ؟ .. علشان تلقى لها حل لازم تفكر وعشان تفكر لازم تكون عايش وعشان تعيش لازم تاكل .. كل .

وظللت آكل حتى أبطلت التفكير وحتى نما جسدى وكبرت ، وتركت مدارس ودخلت مدارس ونسيت كل شىء عن حكاية السلطان كعادتنا حين ننسى إذا كبرنا كل ما أرق تفكيرنا ونحن صغار .

بعد سنين كثيرة و سنين كنت فى إجازة فى البلدة ذات صيف ، و عدت إلى البيت بعد المغرب فوجدت رجلا غريبا جالسا فى وسط الدار يلتهم لقم العشاء بسرعة وتوحش .

ولم أستغرب لوجود الرجل فقد قلت إنه لا بد واحد من ضيوف جدى الغريبين ، وكان جدى رغم مضى كل تلك المدة لا يزال عجوزا كما هو ولا يزال يزاول هوايتيه المحببتين .. شرب القهوة الحلوة خلسة واستضافة الغرباء . وكانت هوايته الأخيرة هذه مبعثها حبه الشديد للحديث .. كانت لذته الكبرى أن يجد مستمعا ليحكى له أو يجد حاكيا ليسمع له . وكان ساخطا على بلدتنا التى لم يعد فيها أحد يحسن الكلام . وفى النهاية إن من يحسنون فن الحديث قد ماتوا خسارة وتاواهم التراب وتركوا جيلا كالبهائم المكممة لا يجيدون الكلام وكأنه بفلوس . ولهذا كان جدى شغوفا بكل غريب يهبط إلى بلدنا ، وكان نادرا ما يهبط إليها غريب .

وما كان أسعده حين يتلفت للسلام بعد صلاة العشاء فى الجامع فيلمح بين صفوف المصلين غريبا ، فعادة الغرباء إذا هبطوا القرى أن يذهبوا إلى الجامع حيث فرص الاستضافة أكثر ، وحيث يمكن المبيت إذا لم يجدوا المضياف الكريم . وكان جدى ما يكاد يلمح أحدهم حتى يسحبه من يده إلى بيتنا ، وكم من المشاكل كانت تنشب ولكن كان لا بد أن توقد النار فى النهاية ويتعشى الضيف ، وتوشوش كنكة القهوة على مهلها فى النار ، ويتكئ جدى على مسندين ويخرج صندوق « المضغة ».ويروح يلوك أوراق

الدخان التى قضى ساعات كثيرة من اليوم يدقها فى الهون ويضيف إليها التوابل . ولا بد أن يحضر جدى للضيف كيفه — سجائر إذا كان يدخن — وجوزة إذا كان من كيفه المعسل ويبدأ بهذا الكلام .

وغريب أمر هؤلاء الناس الذين كانوا يفدون على بلدنا ، إذ هم فى العادة لم يكونوا يزورونها لقضاء عمل معين . هم فئة عجيبة من الناس تلف القرى وتقضى فى كل قرية ليلة ومعظمهم لا يجيدون حرفة ما ، أناس هائمون على وجوههم هكذا أو كما يقولون سائرون بلاد الله لخلق الله ، بعضهم لصوص تابوا وبعضهم عمال من المدينة عاطلون وبعضهم عندهم لوثة وكثيرون فلاحون أفلسوا من كار الفلاحة الشاق ولم يوفقوا إلى عمل آخر ، ولكنهم يتفقون جميعا فى أن لكل منهم قصة وقصة فى أغلب الأحيان رهيبة دامية . أزواج عشقت زوجاتهم عليهم وطردتهم بعد ما جردتهم من كل ما يمتلكون ، أناس يقولون إنهم محكوم عليهم بأن يظلوا تائهين فى بلاد الله هكذا إلى أن يحين أجلهم . وتسأل عمن حكم فيقولون هو ، فتقول من هو ؟ فيقولون : هو والسلام . أناس تلمح فى عيونهم نظرة حائرة تائهة غير مستقرة .. نظرة كلب ضال .. نظرة من لا يعرف له بيتا ولا أهلا ولا أحدا وراءه يهمه أمره ، نظرة من لا يعرف إلى أين المصير ولا يهمه أبدا إن كانت الشمس ستشرق مرة أخرى .

ولعلنى ورثت تلك الهواية عن جدى ، ولكن متعتى الكبرى أنا الآخر كانت أن أربض بجواره إذا جاء الغريب ولا تستطيع قوة فى الأرض أن تنتزعنى من مكانى أو تمنعنى من سماع حديث الغريب أو تأمل هيئته أو قراءة ما يدور فى وجهه .

تلك الليلة أيضا جلست أحدق فى الغريب الجديد . كان يرتدى جلبابا قديما من العبك وعمامة حمراء فيها قطعة سوداء من الخلف ، ولم يكن مظهره يدل على حيرة أو تعب . عيناه فقط كانتا مطبقتين على الدوام لا يفتحهما إلا حين يتكلم حتى إذا ما سكت أطبق أجفانه فى الحال .

وكانت لجدى طريقة ساحرة فى بدء الكلام وفك عقد اللسان ..

فهو يظل ساكتا حتى يتعشى الغريب ويشرب شايه أو قهوته ويأخذ أنفاسا من الدخان ، وغالبا ما كان الرجل يتكلم بعد هذا من تلقاء نفسه دون حاجة إلى سؤال . ومعظم هؤلاء الغرباء إذا تحدثوا كانوا لا يبالغون ولا يكذبون وكأنهم يدركون أنها ليلة .. مجرد ليلة ، وأن المستمع رفيق طريق .. مجرد رفيق طريق . ومهما كان فى المبالغة والكذب من روعة فلا شك أن أروع شىء عند الإنسان أن يتاح له ذات مرة أن يقول الحقيقة دون أن يجر عليه قولها مسئولية أو متاعب .

قال الرجل إنه من الفيوم وإنه ذاهب إلى الشام فى حب الله ، وإنه سائر على قدميه خمسين يوما وأمامه مسيرة مائة يوم بإذن الله . ولم يكن حديثه مسليا .. كان يتكلم ثم يصمت ويغلق عينيه دون أن ينتهى الكلام .

وبدأ جدى يتثاءب ، وكنت لا أستطيع الكلام فجدى كان قد نبه علىّ ألف مرة ألا أفتح فمى إذا كان أحدهم يتكلم وأن علىّ أن أجلس فقط وأستمع .

وكثيرا ما كان يؤدى الحديث إلى سكوت .. ويطول السكوت والنار قد تحولت إلى جمرات ، والجمرات غطيت بطبقة رقيقة من الرماد ، والليل ساكن ونقيق الضفادع يملأ الليل بنغمة منظمة عميقة كأنه شخير الأرض التى نامت وراحت فى النوم .

وفى نوبة سكوت طويلة أطلقت السؤال الذى أرقنى طويلا فسألته :

ـــ لماذا العمامة الحمراء ذات القطعة السوداء من الخلف ؟

فقال :

ـــ لبسنا كده .

ورأيت جدى يعتدل وينفض عن نفسه النعاس ويسأله باهتمام :

ـــ أنت من أنهى طريقة وده لبس مين .؟

وفتح الرجل عينيه وقال :

ـــ احنا مش طريقة .. إحنا ولاد السلطان حامد مالناش طريقة ..

وبدت لى إجابته عادية جدا لا تستدعى حتى مجرد التعليق .

ولكنى فى اللحظة التالية كنت أنتفض .

وجلست قرافيصى وأمسكت الرجل من يديه وأنا أستحلفه أن يروى لى كل شىء عن السلطان ..

واستمع لى الرجل وهو يحدق ناحيتى بعينيه المغلقتين حتى خيل إلىّ من طول ما جلس أنه بلا حراك ، ولكن بعد أن انتهيت رفع رأسه وواجهنى .. كانت عيناه محمرتين ولكنه لم يكن يبكى وصرخ فىّ فجأة :

ـــ وتتهجم على السلطان بالشكل ده ليه ؟

وأفهمته بخفوت أنى لا أتهجم ، أنا فقط أسأل .

وعاد يقول بغلظة وغضب :

ـــ وانت مالك وماله ما تخليك فى حالك وتسيب الناس فى حالها .

وأجفلت ..

وقال جدى :

ـــ مافيهاش حاجة يا سيدنا دا بيسأل .. هو السؤال حرام ؟ قول له .

وفجأة أيضا سكت الرجل وسقط رأسه على صدره وهو يقول بصوت باك وكأنه يؤنب نفسه :

ـــ أيوه أقول له .. أقول له .. أقول له على حبيبى السلطان دا كان يا بنى راجل مبروك .

فقلت بانفعال :

ـــ مبروك ازاى ؟ له معجزات ؟

فقال :

ـــ مبروك .. ما تعرفش يعنى إيه مبروك ؟ أمال افندى إيه بقى ؟ اللى شتت العدوين ما يبقاش مبروك ؟ بقى اللى هزم الكفار ما يبقاش مبروك ؟ أمال انت اللى مبروك ؟

فقلت وأنا ألهث :

ـــ مين العدوين دول ؟

فصرخ فىّ :

ـــ مانتش عارف مين العدوين؟ حد ما يعرفش العدوين ؟ دا أبو باع طويل ومدد واسع هو اللى هزمهم . يا بو مدد واسع شالله ! ياأهل الله شالله ! يا سلطان حامد يا هازم الكفرة مدد يا حبيبى يا سلطان . مدد على طول الماداد ماداد .

وكان صوت قد ارتفع حتى قارب الأذان ومضى يقول وحنجرته الكبيرة تتلاعب هابطة صاعدة بارزة كالورم من رقبته الطويلة :

ـــ ماداد يا سلطان يا بو مدد واسع .. ماداد على طول المدد .. ماداد يابو مقامات عالية فى مصر وسوهاج وأشمون وكل البر ، الناس لها مقام واحد وانت ليك ألف . يا حبيبى مداد .

ولم نجرؤ على قطع الروحانية التى انتابته وكان واضحا أنه لا يهلوس كما يفعل المجاذيب فى الموالد ، كان يبدو صادقا ويبكى بكاء حقيقيا .

وحين هدأ واطمأننت إلى أن هدوءه دائم عدت أسأله .. وأدهشنى أنه راح يجيبنى كالمغلوب على أمره وبصوت يحفل بالندم والتوبة ، ولكن إجابته لم تشف غليلى وقال شيئا كهذا :

ـــ « لما الغزاة هجموا على مصر قام لهم السلطان حامد وأصحابه ، وقال لهم والله ما تدخلوا إلا على جثتى .

بصوا العدوين لقوه بجلابية استهتروا به ، طلع له واحد منهم ورفع عليه سيفه شد منه السيف وتناه . جه العدو يزقه فحس أن الجبل يتحرك وهو لم يتحرك عن مطرحه قيراط . طلع له عشرة يزقوا فيه ما ينزق . بص قائدهم لقى رجليه غارزة فى تراب البر ورأسه محصلة عند عنان السماء وبيقول : والله لو جبتوا قد جيشكم ده آلافات ما تقدر جيوش الدنيا كليتها تلحلحنى عن تراب البر . فضلم يفكروا يعملوا إيه فى غريمهم ده . نط عجوز منهم وقال لهم أنا لقيت الطريق يا رفاقة وعرفت أجيب داغه . قالوا ازاى قال دا جسمه طاهر ما يأثر فيه السيف طول ما هو طاهر ما ياخد السلاح فيه إلا لما يتنجس . قالوا ازاى قال أنا الكفيل أنا ح بول لكم على رجله أنجسها والشاطر اللى ورا بولى يضرب بالسيف . وقف العجوز النجس يبول على رجله ومن وراه سيف غدار ضرب ضربة طير الرِّجل . قال لهم سلطاننا حامد وإيه يعنى ... دى رجل راحت ولسه ليه رجل . ورجع خطوة . وبالطريقة هيَّاها قطعوا له إيد ، ضحك لهم وقال : ما لسه لىّ إيد ، والله يا كفار يا عدوين لاوريكم ولم أخلى فيكم إيد . وفضل العجوز النجس يتبول والسيوف وراه تندب ، وجسمه الطاهر فى كل بلد إن دارت فيها الحرب يتقطع واللى غفل عنه

العدوين إن كل حته انقطعت كانت بتكبر وتبقى راجل يحارب الكفرة ويهجم على العدوين ويقول أنا ابن أبونا حامد .. أنا السلطان .. أنا اللى حوريكم نجوم حمرا فى عز الضهر . وقطعوه قطع ملايين وكل قطعة بقت راجل ، ولما حصلوا راسه كانوا حصلوا الشام وكانوا ولاده بقم آلافات قاموا إلى العدوين ، وكل واحد يتلم على واحد ويشيله من فوق راسه ويرميه فى قاع البحر .

ولما خلص العدوين واتنضف البر قال نحمدك يا رب وطلع منه سر الإلـٰه على طول » .

ونام الرجل فجأة .

وجدت رأسه يسقط على صدره وشخيره يتصاعد بلا سابق إنذار .

ولم أكد أستعيد حكايته لأفكر فيها وأستعيد التاريخ لأخمن من يكون « العدوين » حتى وجدت رأس الرجل ذا العمامة الحمراء وصاحبه يقول وكأنه يتكلم وهو نائم :

ـــ وحد الله .. سيبك .. يا باسط ! اللى يزرع الجميل عمره ما يحصد غدر . والناس ما بتنساش .. قدم لهم السبت تلاقى ألف حد قدامك . وكله فدا السلطان . ماداد يا سلطان يا حبيبى على طول المدد ماداد ....

— ٧ —

هناك طريقة مشهورة لجعل السلحفاة تتحرك باستمرار وذلك بأن نربط على ظهرها عصا طويلة نضع فى نهايتها طعاما تراه السلحفـاة فتتحـرك للوصول إليه وبالطبع لا تصل إليه أبدا ، ولهذا تستمر تتحرك .

نحن مثل هذه السلحفاة لا بد لكى نتحرك أن يكون ثمة أمل فى متناول أبصارنا نحاول الوصول إليه . ولكننا أحيانا لا نرى الأمل ، تخفيه عنا أحداث

الحياة فتتوقف ، لا يائسين ولكن لكى نبحث عن الأمل . ولا بد للبحث عن الأمل أن يكون لدينا « أمل » قوى فى العثور عليه . فترات البحث عن الأمل هذه يسميها الناس اليأس .. بل ويغالون ويضعون اليأس كشيء رأسه برأس الأمل سواء بسواء مع أن الحياة كما نرى أمل متصل ، وحركتنا مستمرة إما لتحقيق الأمل أو العثور عليه ، بل فترات البحث عن الأمل هذه التى يسمونها اليأس .. فترات يكون فيها الإنسان أشد تفاؤلا وأكثر حركة من المؤمل .

والباحث عن الأمل أو اليأس كما يقولون أشد حرصا على الأمل ممن عنده أمل .. والذى لا يملك القرش أكثر حرصا عليه ممن يملكه . بل إن المؤمل قد يضيع منه الأمل أما الباحث عن الأمل فإنه لا يفقد الأمل أبدا فى العثور على الأمل . اليأس أشد تفاؤلا من المؤمل ولو كان أقل تفاؤلا لمات فى الحال أو لانتحر .

وطول هذه السنين التى كنت آكل فيها وأسمن — وقد تركت قضية السلطان — كنت فى الحقيقة لم أيأس من العثور لها على حل . كل ما حدث أننى كنت أتحرك يحدونى أمل ما ، ولكن الحكيم الطبيب حين أرانى أصابعه وسألنى ذلك السؤال ضاع من أمام عينى الأمل .. وضياع الأمل ليس بالأمر السهل ، لا بد له دائما من أسباب فى غاية المنطق والمعقولية .

وحاول أن تناقش « يائسا » ما فسوف تجد ليأسه أسبابا فى غاية القوة ولكنك سوف تجده أيضا يبحث عن الأمل . وأن يعثر الإنسان على الأمل مرة أخرى مسألة أحيانا لا تحتاج إلى منطق ومعقولية ، ولنأخذ حالتى مثلا .

لم يكن كلام الرجل المجذوب معقولا ولا منطقيا وليس له وجاهة كلام الطبيب ، ولكن كم هى غريبة أمور الدنيا .. فبلا مقدمات أو علامات

وجدت أشياء مكتومة فى صدرى ومختزنة قد تراخت وانعكست ، وحفلت نفسى باتساع وتفتح لا حد لهما . وأحسست أن الأمر لا يحتمل أكثر من أن أمد يدى وآتى بحل لمشكلة السلطان .

كان كل شيء ما قد حدث بعد ما استمعت طويلا إلى تخريفات المجذوب .. شيء وكأننى كنت أشك فى وجود الله مثلا ويحيرنى أمره ولا أستطيع أن أجزم بوجوده أو عدمه ، وفجأة عثرت على تلسكوب غريب ممكن أن أنظر منه فأرى السماء وأتحقق من وجود الله .

ولم آخذ تخريفات المجذوب على أنها تخريفات .. أخذتها من زاوية أخرى فلا بد أن السلطان حامد هذا من نوع ما ، عاش ومات كما يعيش الناس ويموتون . ولكن أية حياة هذه ، وأى رجل هذا ؟ وترى ماذا فعله حتى يحتل من نفوس الناس تلك المكانة الرهيبة وحتى يجن أناس ويجذبوا حبا فيه وتنسج حوله الخرافات والأساطير وتقام له مئات الأضرحة فى مئات البلاد وتضيء كل ليلة بعشرات الشموع مئات الليالى ، وربما لمئات السنين ؟

وأمر آخر ، فأن تعمل طبيبا مسألة قد تخصك أنت وحدك ، ولكن أن يقدر الناس أعمالك وبالتالى يقدروك مسألة أخرى . فالدنيا حافلة بالطبيبين الذين عاشوا للناس وماتوا من أجلهم فلماذا لا يقدرون كلهم ؟ لماذا يقدر البعض دون البعض ، وعلى أى أساس إذن يختار ملايين الناس من أعمالك ما يستحق التقدير وما لا يستحق ؟ ولماذا يصبح بعض الناس من معبودى الجماهير كما يقولون بينما لا يكونون هم أشرف الناس ولا أطيب الناس ولا أكثر حبا للناس وتضحية من أجلهم ؟

ولم أكن أدرى وأنا أقلب هذه الأسئلة كلها فى رأسى أننى ممكن أن أجد الإجابة عليها عند روجيه كليمان ..

كنت قد عدت إلى القاهرة من الإجازة القصيرة و كلى تفتح لا لمسألة السلطان حامد وحدها ، ولكن للحياة نفسها .

وكم أدركت خطئى لأنى ظللت فترة طويلة من حياتى لا أفكر إلا فيها وحدها ، فكما يقولون قد تجد ما تفكر فيه فيما لا تفكر فيه، وقد تجد ما لا تفكر فيه فيما تفكر فيه .

لا بد أن هذه الحكمة صحيحة إلى حد ما ، ولو إلى الحد الذى يجعلنى أو من أن لقائى بمدام أنترناسيونال ، كان اسمها « جين » .. ولم أعرف إلى الآن جنسيتها فأحيانا كانت تقول إنها هولندية والباسبور الذى معها كان من دوقية لوكسومبرج وتقول إن باريس هى محل إقامتها . وحين عرفتها كانت قادمة من جنوب إفريقيا فى طريقها إلى زوجها التشيكوسلوفاكى الذى يعمل مهندس مناجم فى بولندا ، وبالشرف إنى لا أبالغ فهى نفسها لم تكن تجد غرابة فى هذا .. كانت تهز كتفيها ببساطة وتقول : أنا أنترناسيونال . أما كيف عرفتها فالمسألة فى بساطة جنسيتها . الصدف المحضة دفعتنى لأن أزور الإسماعيلية عقب الاعتداء على مصر ، والصدف المحضة هى التى دفعتنى لأن أقابل أحد أصدقائى الأطباء فى مطعم اللوكاندة التى كنت أنزل فيها . والصدف المحضة هى التى دفعت صديقى هذا لأن تتولاه « نوبة شهامة » ويدعونى لأن أقيم معه فى حجرته بمستشفى الإسماعيلية وكان يعمل فيه طبيبا مقيما . وأنا أحب جو المستشفيات والملابس البيض الحسان ، ورائحة اليزول إذا جاءت إلى أنفى من بعيد وكانت لطيفة خفية .

وهناك عرفت مدام أنترناسيونال ، كانت إحدى مرضى المستشفى وكانت موضوعة تحت الحراسة ، فقد كانت أحد ركاب الباخرة « كارولينا » السويدية التى حجزها الاعتداء الغاشم فى مياه القنال .

وكانت جين هذه ملحوسة لحسة منقطعة النظير .. فهى لم تكن مريضة ولكنها حاولت الانتحار فى الباخرة وأنقذوها فى أول لحظة ، ولكنها ادعت أنهم جاءوا متأخرين بعدما سرى الأسبرين فى جسمها وأن قلبها مالم يعمل له « رسم » سيتوقف فى الحال ، وإذا عرفنا أن الباخرة لم يكن فيها جهاز رسم قلب كهربائى أدركنا أهداف مدام أنترناسيونال . كان هدفها أن تهبط إلى البر وتعيش فى مصر ، إذ كانت قد زارت تسعا وثلاثين بلدة من بلاد العالم وكانت تريد أن تحكى لصديقاتها عما رأته فى الأربعين .

وسألتها :

ـــ ألست ذاهبة إلى زوجك فى بولندا ؟

فقالت :

ـــ لا ، نحن نلتقى على الدوام فى باريس فأنا لا أستطيع أن أحيا فى غير باريس .

وقلت لها مرة :

ـــ لم لا تفكرين فى هدف لحياتك ؟.

فقالت : كيف أفعل هذا وهدفى فى الحياة أن أحيا بلا تفكير ؟.

ولو لم تقل ذلك بطريقتها البادية الصنعة لحسبتها فيلسوفة أو من المفكرين . وكان صديقى الطبيب لا يكاد يستقر فى الحجرة فى أثناء الليل أو النهار خلال الأيام الثلاثة التى مكثتها فى المستشفى . ما تكاد تمضى دقيقة حتى نسمع دقا : الخواجاية عندها مغص يادكتور .. ويذهب صديقى فلا يجد مغصا ولا إسهالا .. ولا يكاد يعود حتى يعود الدق من جديد : الخواجاية عندها احتباس فى البول .

وكنت كثيرا ماأذهب معه ولم يكن صديقى ضيقا بها ، كانت شيئا جديدا فى حياة المستشفى الروتينية وحياته . وكثيرا ما جلسنا نتحدث ، وكثيرا ما حملنا الحديث بعيدا إلى أبعد من جدران المستشفى ومأساة الحرب . وأخطأت مرة وذكرت لها حكاية السلطان ، وكأنها كانت تنتظر طول عمرها أن يقول لها أحد شيئا كهذا . فإلى أن انتزعت من سرير المستشفى انتزاعا إلى الباخرة كانت لا تزال تسألنى وتحلف وتدقق وتروع للتفاصيل وتقول :

ـــ أوه .. يا سلام !.

ويا سلام هذه هى الكلمة الوحيدة التى تعلمتها فى أثناء إقامتها بالمستشفى .

ولم تكتف بعنوانى المكتوب الذى أعطيته لها ، ولكنها ظلت تردده حتى حفظته عن ظهر قلب .

وودعتنى وهى تقول :

ـــ حتما سأكتب لك .

ولكن لم أتوقع أبدا أن تفعل .

وعدت إلى عملى ، وإلى القاهرة وإلى الساعات اليومية الثابتة التى كنت أقضيها فى دار الكتب .

كنت قد أمسكت بخيط ما ، وكان ترددى على الدار هدفه التأكد منه ، فبحثت عن أسماء جميع السلاطين الذى حكموا مصر أو حتى من قدموا إليها غازين أو زائرين ، بل حتى أسماء سلاطين آل عثمان راجعتها كلها ، ولم أجد ظلا ولا إشارة واحدة لسلطان باسم السلطان حامد .

وحتى هذا الخيط الواهن انقطع ، وبهذا فقدت كل أثر للسلطان .

غير أن حماسى لم يفتر أو يقل .

يومان فى الأسبوع كنت أذهب إلى مكتبة الجامعة ومن هنالك إلى قسم التاريخ فى كلية الآداب ، وأخطئ إذا قلت إن جهودى كانت تذهب عبثا ، إذ خلال شهور طويلة كنت قد تعلمت أشياء عن تاريخنا لم أكن أحلم بمعرفتها ، وكنت قد خرجت بعدة صداقات ليس أقلها صداقة متينة كانت بينى وبين « على بك » القزم الذى لا يكاد طوله يزيد على المتر والذى يبيع الكتب القديمة رائحا غاديا بين العتبة والأزهر . وكانت الحكاية قد تسربت منى إلى أصدقائى وإلى معارفهم حتى كنت أحيانا أجد أناسا لا أعرفهم يبتسمون لى إذا قابلونى فى مكان عام ويقولون :

ـــ هيه .. عملت إيه فى حكاية السلطان ؟.

ونفس السؤال كنت أسمعه من شبان أهل بلدنا وطلبتها ، وحتى الكهول . ومع أن الوضع قد انقلب وانتقلت من الطفل السائل إلى الرجل المسئول ، إلا أن إجابتى كانت لا تكاد تختلف عن الإجابات التى كنت أجن لها وأنا صغير .

وما أكثر ما كان يصلنى من أفكار واقتراحات ، يضرب أحدهم كتفى بشدة ويقول :

ـــ وجدت لك كتابا يصلح .

ويأخذنى آخر بالحضن ويقول :

ـــ خلاص . عرفت حكاية السلطان .

ويحكى ، وإذا به سلطان غير السلطان . وكنت أتوقع أى شىء إلا أن أفتح صندوق الخطابات مرة أخرى فأجد خطابا راقدا فى قاعه وعليه طابع بريد أجنبى .

كان الخطاب من مدام أنترناسيونال .

وما كدت أفتحه حتى تساقط منه شيء ، ولكنى شغلت عنه بقراءة الخطاب . ولم أكن أتوقع أن يكون لها مثل هذا الخط الجميل ، ولم لا أقول إنى ما كدت أعرف أن الخطاب منها حتى وجدتها تلوح فى خاطرى وأحس أنى حقيقة افتقدتها . أحيانا يبدو الشخص المتعب جذابا من بعيد .

وعلى عكس طريقتها فى الكلام كتلك الطريقة التى تظن معها أنها لا تتحدث ولكنها تمثل ، كان أسلوبها فى الكتابة رزينا حتى كدت أظن أنها أصبحت أرملة . والأغرب من هذا كانت تتحدث عن السلطان !

قالت إنها منذ أن تحركت بها الباخرة وغادرت قنال السويس وهى لا تفكر إلا مشكلة السلطان ، وقد أحست — وبنص كلامها — لأول مرة أنها وجدت شيئا يستحق أن تفكر فيه . ولأسخر منها ما شئت ولكنها فعلت والنتيجة مرفقة بالخطاب .

وتأملت ما سقط من يدى حين فتحت المظروف ، فإذا به صفحات من كتاب مطبوع .

وعدت أكمل قراءة الخطاب الغريب : لا تسل كيف عثرت على هذه النتيجة ، فمنذ عودتى إلى باريس وأنا وصديقاتى لم نسترح لحظة واحدة ، ولم يكن لنا هم طول الوقت إلا البحث فى مشكلة السلطان . وكنت أريد أن أحدثك بالتفصيل عن الجهود الكبيرة التى بذلناها لولا أنى أوثر أن أخبرك بأهم شيء . ففى الشهر الماضى صدر عن إحدى دور النشر هنا كتاب يعتبر وثيقة تاريخية مهمة وهو عبارة عن مجموعة من الخطابات التى تلقاها المسيو جى دى روان من صديقه روجيه كليمان . وروجيه كليمان كان أحد علماء الآثار الذين رافقوا حملة نابليون على مصر ،

ويقال إنه لم يعد وأنه استمصر وارتدى الملابس الوطنية وأقام هناك . وهأنذا أرسل لك مع خطابى هذا بعض صفحات منتزعة من الكتاب وهى تحتوى على الخطاب الأخير . ولعلمك أن الذى قام على تحقيق هذا الكتاب ومراجعته وتدوين الملاحظات عليه هو الدكتور س . مارتان عضو الأكاديمى فرانسيز . وبهذا تستطيع أن تطمئن تماما إلى سلامة كل ماورد فيه . وأنا لا أعرف إذا كان ما جاء فى الخطاب الذى أرسله العالم الفرنسى ما يكفى لحل لغز السلطان أم لا ، ولكن لا أريد أن أمنعك من قراءة الشيء الذى انتظرته طويلا وأظنك فى شغف شديد للاطلاع عليه .

أرجوك .. اكتب لى حالا وأخبرنى بكل شيء .

عزيزتك

جين انترناسيونال

ملحوظة : هل عندكم حقيقة قرية اسمها « شطانوف » ؟ وهل لا تزال موجودة إلى اليوم ؟ صفها لى فى خطابك أرجوك .

— ٧ —

والواقع أنى لم أكن فى شغف شديد لقراءة الصفحات .. كانت حالتى أقرب ما تكون إلى الذهول . لم يكن ذهول الدهشة ولكنه كان ذهول الاطمئنان . فأنا لم أصارح أحدا برأيى هذا ولكنى كنت كثيرا ماأفكر فيه . كنت أحيانا ينتابنى خوف من نوع ما .. خوف أن أكون قد ضخمت الموضوع أكثر مما هو فى الواقع ، خوف أن يثبت لى فى النهاية أن السلطان حامد هذا ليس له لغز ولا مشكلة ، وأننى أنا الذى صنعت اللغز

وخلقت الإشكال ، وممكن ألا يثبت أن هناك سرا وراءه ولا يحزنون .

ولو حدث هذا كنت أصبت حقيقة بالذهول .

لحظتها كنت أحس براحة غريبة .. راحة تمنعنى عن الحركة وحتى عن محاولة معرفة الحل ، وكأنه كان يكفينى أن أعرف وأتأكد أن هناك حقيقة سرا ، راحة مضت تدفعنى إلى أن أفكر فى أى شيء إلا التفكير فى تصفح الأوراق .

وخطرت لى شطانوف .. لماذا لم أتذكر أن جدى الأكبر طالما حدثنى عنها وطالما ذكرنى أن لنا هناك أقرباء ، وأن جدى الأعلى غادرها فى أيام القحط واستقر فى بلدنا ؟ ولماذا لا يكون السلطان حامد قد أقام فترة فى شطانوف فى الزمن القديم ، لماذا لا أكون من أحفاده ؟

وقلت أرحم نفسى وأقرأ الخطاب .

ولكنى وجدت الصفحات مكتوبة بالفرنسية وأن محصولى فيها ضعيف ، ولذا أسرعت إلى أحد الأصدقاء الضليعين فيها واشتركنا فى ترجمته وهكذا كانت بدايته :

الخطاب رقم ١٠

هذا هو الخطاب الأخير فى المجموعة وإن كان بعض الناس يعتقدون أنه لم يكن الأخير ، وأن الأستاذ كليمان أرسل بعده خطابا إلى صديقه المسيو دى روان ولكن الصديق مزقه عقب قراءته لسبب لا يزال مجهولا .

أما مصير روجيه كليمان بعد كتابته هذا الخطاب فليس معروفا على وجه الدقة . ومع أن بعض الثقات يؤكدون أنه عاد إلى فرنسا فى أخريات أيامه حيث وافاه الأجل فإننى شخصيا ضد هذا الرأى .

س . ماريشان

وها هو الخطاب ...

القاهرة فى ٢٠ يونيو سنة ١٨٠١

عزيزى جى

لا زلت لا أعرف إن كان خطابى الأخير قد وصل إليك أم ضل الطريق إليك ، ولا أعلم إن كنت قد كتبت ردا عليه وفقد هو الآخر أم أننى لا أزال سيىء الظن بمصلحة بريدنا الموقرة .

على العموم وسواء ألقى خطابى هذا مصير سابقه أم وصل إليك سالما فإننى أحس أنى لا بد أن أكتب لك ، حتى ولو كنت متأكدا أنه لن يصل إليك ، فهناك أشياء كثيرة تحدث داخل نفسى وأريد أن أفضى بها لصديق ، فكما تعلم أنا لا أجرؤ على أن أهمس لأحد هنا بما يدور فى خلدى .. أعلم أنك ستسخر منى كعادتك ،.ولكن أرجوك حاول أن تفهمنى فالناس هنا لا يريدون .

طلبت منى فى خطابك الذى أرسلته منذ أكثر من ستة شهوأن أحدثك عن مصر والمصريين ، وذلك الشعب الذى يحيا على ضفاف النيل .. ومشكلتى يا صديقى العزيز هى هذا الشعب .

إننى أعترف لك أننى لم أكن هكذا يوم جئت . أنا كما تعلم حياتى هى فرنسا وقد اشتركت فى حمل جمهوريتنا على أكتافى . كنت وأنا أضع قدمى على أرض مصر أحس أنى مقبل على بلاد إفريقية مظلمة ، أحمل لها شعلة الحضارة وأذيقها طعم الجمهورية التى تنهل منها بلادى . فإذا بى اليوم .. ماذا أقول ؟ لقد شاهدت القوى الخارقة بعينى ياروان ، لقد مسنى سحرها ولكنك لن تفهم ، لن أجد أحدا فى العالم .. عالمكم يفهم ماأعنى فلماذا أتعب يدى وقلمى ؟

حسنا ! سأصنع كما يصنع مرشدو الآثار وسأحدثك عن مصر ، فأظن أن الحديث فى هذا هو الذى يستهويك . المصريون يا صديقى ليسوا كما تقول .. فهم لا يرقصون حول النيران فى الليل ، وحريمهم أبعد ما يكون عن حريم ألف ليلة وليلة ، وهم غير المماليك — وأظنك لا تعلم هذا — والمماليك انتهينا منهم أو من أمرهم فى أولى جولاتنا معهم ، جاءوا فى صف طويل يرتدون الملابس الحريرية الهفهافة ويركبون الخيل المطهمة وخلف كل منهم عبد أسمر يجرى . جاءونا كدون كيشوت شاهرين سيوفهم ويصرخون فينا أن نخرج لهم لتدور بيننا وبينهم الحرب ويبدأ النزال .

وكانت إجابة الجنرال (يقصد نابليون) عليهم حاسمة ، فقد أطلق عليهم مدفعيته فى الحال .

وطبعا سقطوا يتخبطون ويصرخون ويلعنون نذالة الفرنسيس ويترحمون على زمن الشجاعة والإقدام .

وبعد معركة أو معركتين كنا قد انتهينا منهم كما قلت لك .

أما المصريون فبعضهم يسكن القاهرة والمدن ، ومعظمهم يزرعون الأرض ويسكنون قرى سوداء مبنية بالتراب فى الأرياف واسمهم الفلاحون .

وآه من هؤلاء يا جى !.

إذا رأيتهم عن قرب ورأيت وجوههم التى تبتسم لك فى طيبة وسذاجة وأدركت خجلهم الفطرى من الغريب ، ربما يدفعك هذا إلى الاستخفاف بهم وتعتقد أنك لو ضربت أحدهم على قفاه لما جرؤ على أن يرفع لك وجهه ، ولتقبل الإهانة بكل سعادة وخشوع .

حذار أن تفعل شيئا كهذا يا جى .

فقد حاول الجنرال وكليبر وبيلو ذلك وندموا .

لا أحد يستطيع أن يسبر غور هؤلاء الناس .. تلك القبيلة ذات الملامح المتشابهة التى هبطت ذات زمان بعيد إلى وادى النيل وآلت على نفسها ألا تتحرك من مكانها أو تتفتت . والقبيلة التى تعلمت أن تحنى رأسها لعاصفة الغزاة ثم تمضغهم على مهل . القبيلة التى تسكن واديا مفتحا من كل الجهات تستطيع بأى جيش صغير أن تغزوه . والمشكلة ليست فى الغزو أبدا .. المشكلة ما يحدث بعد الغزو .

وأتحدى التاريخ أن يثبت أن غازيا دخل هذه البلاد واستطاع أن يغادرها سالما . لديهم آلة عجيبة — هؤلاء الفلاحين — يستعملونها لطحن الحبوب ، حجر كبير يدور فوق حجر كبير ويوضع الحب من فوق سليما ليخرج من بين الحجرين أنعم من الدقيق .

لقد وجدنا الأتراك هنا قد أصبحوا دقيقا من أزمنة طويلة مضت ، وكان المماليك فى طريقهم إلى نفس المصير .. لست أدرى أين تكمن قوتهم ولا كيف تتم تلك العملية ، ولكن المؤكد أنها تتم .

وقصة حامد لا أقول إنها توضح ماأريد ولكن فسرها إن كنت تستطيع ، لقد جئت هذه البلاد عدوا ولن أخدع نفسى وأقول — مثلما يقولون كلهم هنا — إننى جئت لأحرر المصرين من المماليك . جئت عدوا يا صديقى .. جئنا كلنا عدوا قويا مسلحا بأحدث ما وصلت إليه أوربا من مخترعات وآلات دمار .. جئنا غزاة قادرين فإذا بنا اليوم فى ورطة ، وإذا بمشكلتنا هى كيف ننتزع أرجلنا لننجو بأنفسنا من طمى هذا البلد وأناسه الذين نحس بأنفسنا نغوص فيهم ونختفى .

ولا أزعم أنى سأحسن الحديث عنهم ، فليس فى استطاعتى أن أفعل شيئا كهذا ، سأحدثك فقط عن حامد . فمنذ شهور كثيرة وهو الموضوع المفضل للحديث بيننا حين نملك الحديث ، ويكفى أن تعلم أن القيادة قد أصدرت أمرا غير مكتوب بمنع الحديث عنه .

وحامد هذا ليس زعيما من زعماء المصريين بل إنه إلى شهور قليلة لم يكن أحد يهتم بحامد هذا أو يقيم له وزنا ، فقد كان أحد فلاحى قرية شطانوف الواقعة بين فرعى النيل ، وأظنك لا يمكن أن تعتقد أن اسم شطانوف هذا اسم فرنسى .. ولكنه كذلك . فالقرية كان اسمها فى الأصل كفر شندى وكان بجوارها قلعة قديمة من قلاع المماليك . وحين غزونا الدلتا وطردنا المماليك هدمنا القلعة القديمة وبنينا أخرى جديدة بخامات محلية وأسميناها شاتو نيف (أى القلعة الجديدة) ، وكذلك غيرنا اسم البلد وسميناه باسم القلعة ، ولا تحسبنى أسخر حين أقول إن هذا كل ما صارت إليه رسالتنا تجاه بلاد إفريقيا المظلمة .. أن نغير اسما باسم ، ولكن الفلاحين غيروا فيما غيرنا بطريقتهم الخاصة ، فأطلقوا على القرية اسم شطانوف بدلا من شاتو نيف .

حامد كان من فلاحى هذه القرية الذين يزرعون الأرض ويصلون لله فى الجامع ، وظل هكذا إلى أن جاءت قواتنا وعسكرت فى القلعة الجديدة ، وكانت القوات بقيادة الكولونيل بيلو الذى عانقته وأنت تودعنى فى مارسيليا ، أتذكر ؟ والقلعة كانت بالغة الأهمية إذ كانت نقطة ارتكازنا الرئيسية فى الدلتا كلها ، وكانت فى الوقت نفسه قاعدة تخرج منها الدوريات لتفتيش المنطقة بانتظام .

وكانت سياسة بيلو منذ أن حل فى القلعة أن نتجنب مضايقة الفلاحين أو التحرش بهم حفظا لسلامة القاعدة ، وليس لأننا أصدقاء المصريين كما كان يحاول الرجل الطيب أن يفهم الفلاحين ، ليس هذا فقط بل كانت سياسة الجيش عامة أن يحاول التقرب من الوطنيين ويوطد علاقته بهم .

ولم نستفد من إقامة أمثال هذه العلاقات إذ كلما حاولنا أن نتقرب منهم ازدادوا نفورا ، وكلما حاولنا إفهامهم أننا أنقذناهم من ظلم المماليك نظروا إلينا طويلا وكادت نظراتهم تقول : جئتم لتنقذونا من المماليك ، وجاء المماليك لإنقاذنا من الأتراك ، وجاء الأتراك لإنقاذنا من التتر ، وجاء التتر لإنقاذنا من الخليفة وجاء الخليفة لإنقاذنا من البطالسة ، وجاء البطالسة لإنقاذنا من الإغريق .. لماذا تخصوننا بشهامتكم أيها السادة ؟!

وماأقسى نظرات هؤلاء المصريين حين يوجهونهاإلى علو غريب ! إنهم بينهم وبين أنفسهم يعاملون بعضهم كالديوك ، طول النهار لا يتحدثون إلا شتائم ، هناك أكثر من مائة لقب للأب تبدأ من المركوب وتمر بكل مايلبس فى الأقدام ، وتغطى المملكة الحيوانية حتى الخنزير ، وأى مكان فى جسد الأم ممكن أن يصلح مادة للشتائم . شعب ثروة شتائمه لا تجدها عند أى شعب آخر ، ولا يتكلمون إلا زعيقا . ومع هذا فليجسر غريب — أى غريب — ويحاول أن يلمس أحدهم : ما إن يحدث هذا حتى تحدث المعجزة وإذا بهم يواجهونه وقد نسوا كل ما كان بينهم من شتائم وخلافات .

وكنا دائما نحس بنظراتهم تكاد تلتهمنا ، وما أقسى أن تعيش بين شعب لا يحاول أن يخفى عداوته . وهكذا ظلت الهوة تتسع حتى حدث عصيان

القاهرة الذى حدثتك عنه ، ومنذ ذلك الانفجار وأعصاب قواتنا فى انهيار مستديم .

ورغم تعليمات بيلو وتنبيهاته اليومية فقد فَقَد أحد جنودنا المعسكرين فى شطانوف أعصابه ذات يوم وأطلق النار على فلاح كان يتتبعه بنظراته .. فقتله .

وأحدث هذا العمل أسوأ الأثر فى القرية .

وذهب الفلاحون الغاضبون بزعامة شيخ البلد لمقابلة الكونيل بيلو . ولم ينتظر الرجل وذهب لمقابلتهم عند الباب وطلبوا منه أن يقتل القاتل أمامهم ، فحاول بيلو أن يقنعهم أن القاتل سيحاكم وأنه سيلقى جزاءه ، ولكنهم أصروا على أن يختار بين أمرين : إما أن يقتل القاتل أو يسلمه لهم لكى يقتصوا منه . ورفض بيلو كلا الأمرين وأمر الأهالى بالانصراف .

وصدعوا للأمر وانصرفوا ..

ولكن فى اليوم التالى قتل أحد جنود القلعة وهو فى طريق عودته إليها .

وذهب بيلو على رأس قوة كبيرة وقبض على شيخ البلد وأحضره إلى القلعة، وطاف مناد فى القرية يقول : ما لم يسلم القاتل نفسه قبل مغيب الشمس فإن شيخ البلد سيعدم رميا بالرصاص .

وقبل مغيب الشمس توجه للقلعة أحد الفلاحين وقال إنه القاتل وطلب الإفراج عن الشيخ . وأخذ بيلو الموضوع كله ببساطة وقرر أن يشنق الفلاح بعد محاكمته على مرأى ومسمع من الفلاحين ليعتبر غيره بمصيره .

وكان هذا أسوأ قرار اتخذه بيلو فى حياته .

ففى اليوم التالى سيق المتهم إلى ساحة القرية الرئيسية ، وجمع كل من وجد فى القرية من أهلها وأوقفوا فى الساحة ليشهدوا المحاكمة .. وتكونت المحكمة من بيلو رئيسا والماجور لسال والسيرجنت جان برومبرجر عضوين ، وكان هنالك ممثل اتهام ، أما الدفاع فلا تدهش إذ قمت أنا به .. ذلك أننى كنت قد وصلت فى ذلك اليوم بالذات لأقضى بضعة أيام فى ضيافة بيلو ، ولأدرس حياة الفلاحين عن كثب .

وكل ما كنت قد عرفته عن المتهم أن اسمه حامد وأنه لا يختلف عن بقية الفلاحين فى المظهر أو الشكل ، كل ما يميزه أنه كل طويل القامة طويل الأنف واسع العينين ، إصبع يده اليسرى البنصر مبتورة وعلى وجنتيه عصفورتان موشومتان لتقوية بصره كما قال لى الترجمان ... وطبعا لم أكن أريد أن أشترك فى هذه المهزلة ، ولكن صديقى بيلو ألح على لأؤدى هذا « الواجب » باعتبارى الوحيد الموجود الذى حمل دكتوراه فى القانون .

وطبعا كانت مهزلة .. الفلاحون جالسون وواقفون فى الساحة ينظرون لنا نظرات كلغتهم لا نفهمها ، والمحكمة تتبادل التعليقات الساخرة بصوت مرتفع ، وثمة مترجم ركيك لا يجيد العربية ولا حتى الفرنسية .

وجاء دورى لأدافع عن المتهم ، ولست أدرى ماذا كان رأى بيلو فى دفاعى الذى بدأته بالحديث عن الثورة الفرنسية وشعاراتها المقدسة التى قامت من أجلها .. الحرية والإخاء والمساواة . كم كان مضحكا أن أتفوه بها فى ساحة شطانوف .. والحكم صادر ولا ينقصه سوى التنفيذ .

ولحسن الحظ — ولسوئه أيضا — لم يتح لى أن أكمل مرافعتى .. فقد هجموا علينا .. لم نكن ندرى من أين جاءوا ولكن امتلأت الساحة بتلك

العصى اللعينة التى يسمونها النبابيت ، وبالخناجر المتوحشة الرهيبة التى تصرخ لهكبر لهكبر . ولن أحدثك عن الرعب المجنون الذى انتابنا محكمة واتهاما ودفاعا وحراسا ، فقد كنا لا نزال نعانى من فوبيا الفلاحين التى تكونت لدينا . فقد حدث بعد الاستيلاء على القاهرة أن أرسل نابليون جيشا بقيادة مارتن ليحتل المنطقة الشرقية من الدلتا .. وخرج الجيش فى الفجر ، وما انتصف النهار حتى كانت قواته عائدة فى حالة يرثى لها . الجنود يرتجفون وعيونهم تنطلق بالرعب المجنون وملابسهم فى حالة تمزق كامل ، وكل منهم يروى قصة مختلفة غريبة عن قوم متوحشين خرجوا عليهم مسلحين بالنبابيت والعصى والفئوس والمناجل وكانوا يصرخون كأكلة لحوم البشر ، وتخرج صرخاتهم كالرعد وهى تردد لهكبر لهكبر (ومعناها أن الإلـٰه أكبر من كل الأعداء) وجنوده كما تعلم هم صفوة الجيش الفرنسى المختارة ، الصفوة التى فتح بها قائدنا العظيم نابليون النمسا وأسبانيا وبولندا وانتصر بها فى سالزبورج وإيطاليا ، الصفوة التى شتتت المماليك الشجعان الأقوياء فى معركتين . تصور هذه الصفوة المسلحة بالبنادق والمدافع تواجه قوة مسلحة بالعصى والمناجل فتفر مفزوعة هالعة لا تملك حتى أن تطلق بنادقها أو تتجمع صفوفها (ولماذا أخفى عليك أن بعض جنودنا تبولوا على أنفسهم من شدة الرعب) ؟ ولم يستطع أحد أن يفسر هذه الظاهرة أبدا ، وهل هى راجعة لوحشية هجوم الفلاحين أو لأسباب أخرى غير معلومة .

وكان لهذه الحادثة نتائج رهيبة .. فقد كان لرجوع جنود مارتن بهذا الشكل الدرامى أسوأ الأثر على الروح المعنوية لجيشنا كله .

، منذ ذلك التاريخ أصيبَ جنودنا بمرض الخوف من الفلاحين إلى درجة جعلت أحد أطباء الجيش يطلق على هذه الحالة (فلاحين فوبيا) .

غير أن هذا المرض بدأ يزول تدريجيا حين تم لنا الاستيلاء على مصر ، ورأينا الفلاحين عن قرب ولم نجدهم متوحشين ولا من أكلة لحوم البشر . وجدناهم حين عرفناهم طيبين جدا ومسالمين ويخجلون من الغرباء .. ولكنهم مطيعون . وأحيانا كنا نجدهم ساذجين حتى ليخيل للواحد منا أنه لو صفع أحدهم لما احتج ولما غضب . ولم نكن نستطيع أن نصدق أنهم هم اللذين أفزعوا قوات مارتن حتى أحالوها إلى قطيع من الحيوانات المذعورة التى تبحث عن النجاة بأية طريقة .

ما كدنا نرى هذه العصى الرهيبة التى يسمونها النبابيت ونسمع لهكبر هذه حتى جرينا كلنا إلى القلعة لنحتمى بها . ولم تحدث فى هذا اليوم خسائر .. كنا فقط قد خسرنا المتهم . إذ كانوا قد استطاعوا فى غمرة الارتباك الشديد الذى حدث أن يهربوه . وتولى بيلو غضب جامح وجمع قواته فى فناء القلعة وألقى عليهم خطابا يفيض بالتأنيب والتوبيخ ، وقال لهم إننا سنخرج كلنا من القلعة ولن نعود حتى نكون قد قبضنا على حامد هذا وعلى عشرة غيره ..

وتركته هو يواصل جهوده المظفرة ، أما أنا فقد أخذت طريقى عائدا إلى حفرياتى فى منطقة الهرم . ولكن أخبار ما حدث بعد هذا كانت تصلنا من القاهرة باستمرار ولم أعرفها وحدى .. كان الجميع يعرفونها .

فقد خرج بيلو على رأس قوة القلعة كلها وحاصر شطانوف وفتش كل المزارع التى حولها وفتش كل البيوت ولم يعثر على حامد . فقبض على شيخ البلد وعلى عشرة من الأهالى ، ونادى المنادى أيضا بأنه مالم يظهر حامد

فسيعدمهم .. ولكن الشمس غابت ولم يظهر حامد . وخاف بيلو إن هو أطلق النار على الفلاحين الأسرى أن يزداد الشغب .. فأعطى أهالى شطانوف مهلة أخرى ، ولما لم يظهر حامد غضب بيلو وأطلق النار على شيخ البلد واحتفظ بالباقين أحياء .

وكان لإعدام شيخ البلد دوى شديد فى شطانوف والبلاد التى حولها ، وسرت إشاعة تقول إن حامد الفلاح أقسم أنه سوف يقتل بيلو انتقاما للشيخ .

ولكن بيلو لم يكن بالرجل الذى يخيفه التهديد ، فقد استمر يخرج على رأس الدوريات التى تبحث عن حامد .. ولكنه خرج مرة وعاد محمولا على حصانه وجسده ممزق بالثقوب .

ولم ينم الجنرال ليلتها وأمر بتسيير القوات التى كانت تعسكر فى شبراخيت إلى شطانوف ، وعهد بالقيادة إلى الجنرال كليبر نفسه . وكانت مهمة القائد الجديد هى التنقيب فى منطقة شطانوف وما حولها بحثا عن حامد هذا ، الفلاح ذى الإصبع البنصر المبتورة ، والعصفورين الموشومتين على وجنتيه .

ولم يكن الهدف من القبض على حامد هو إعدامه لرد اعتبار جيشنا فقط ، ولكن كان الهدف هو القضاء عليه نفسه ، إذ أن قتله لبيلو أكسبه شعبية هائلة فى القرى المجاورة . وشعور الفلاحين لنا باعتبارنا كفارا وأجانب وأعداء قد بدأ يتبلور حول شخص حامد هذا ، خاصة وقواتنا كانت لا تراعى المجاملة فى الاستيلاء على الأطعمة وعلى الخيول بلا مقابل .

وضع كليبر خطة دقيقة حاصر بها منطقة وسط الدلتا كلها حتى أصبح وقوع حامد متوقعا بين يوم وآخر . ولكنا ياصديقى كنا نواجه قوما

غريبين لا نعرفهم .. فقد وجد كليبر نفسه المحاصر وسط السحنات المتشابهة المتفاهمة التى لا تستطيع أن تعرف ما يدور خلف جبهاتها أبدا .

وكانت العلامة المميزة لحامد معروفة بالوشم على وجنته وإصبعه البنصر المبتورة فانظر ماذا حدث ؟

جميع حقول الذرة تركت بلا حصاد وانتزعت منها ثمراتها وهى واقفة . ففى أرض مصر المستوية لا يمكن الاختفاء والاحتماء إلا فى حقول الذرة ، تلك الحقول التى يمكن أن يكون بينك وبين الشخص أمتار قليلة ولا تراه . وعرف كليبر عن طريق العيون الكثيرة التى يستخدمها أن كل قرية فى الدلتا قد أعدت لحامد بيتا وزوجة ! وكانت الأنباء تجىء أن حامد سيكون فى قرية كذا فى يوم كذا .. وتهاجم القوة الفرنسية القرية وتحاصرها حصارا لا تفر منه إبرة ، ومع هذا تجد حامد ينزلق من بيت إلى بيت حتى يصل إلى حافة القرية ويبتلعه حقل ذرة قريب . وكان كل من يعثر عليه وعلى وجنتيه وشم العصفورتين أو إصبعه البنصر مقطوعة يقبض عليه فورا . ولكن لوحظ أن عدد المقبوض عليهم يزداد بكثرة شديدة ، وبعد البحث اتضح أن الفلاحين ــ لكى يخفوا حامد بعلاماته المميزة ، رأوا أن يرسم أكبر عدد منهم وشم العصافير على وجناته ويقوم ببتر بنصره اليسرى حتى لا يصبح ممكنا أن تميز حامد من بينهم . وبعد أن كان وشم العصافير على الوجنات علاجا لتقوية البصر أصبح عادة شعبية ، وبتر الإصبع البنصر أصبح مجال تنافس بين رجال القرى وشبانها ومرتبة من مراتب الشجاعة والبطولة . وكان لا بد أن يحدث ما حدث يا صديقى ، فشيئا شيئا بدأت عصابات صغيرة تتكون من مبتورى البناصر وواشمى العصافير

وتهاجم وتقطع الطريق على قواتنا وتغتال أفرادها ، وكان أفراد هذه العصابات يسمون أنفسهم أولاد حامد .. وأطلقوا على حامد اسم حامد الأكبر ثم سموه حامد السلطان (والسلطان هنا علامة للتبجيل الشديد) . وبدأ اسم حامد يزعج كليبر بشكل رهيب كلما مرت قواتنا فى قرية صرخ وراءها الأطفال : حامد حامد . وكان المؤذنون الذين يستدعون الناس للصلاة فى المساجد (أناس يقابلون أجراس الكنائس عندنا ولكن بدلا من أن تدق يؤذن الشيخ) كانوا يقولون فى آخر الأذان . انصرنى يارب على أعدائى فإنى لك حامد . وكانت قواتنا حين تمسكهم يقولون : إننا فقط نردد كلام الله وكلام القرآن . وأصبحت عملية القبض على حامد مستحيلة .. وعملية حصار وسط الدلتا لا فائدة منها . كان الرجل قد ذاب فى الأجساد الخشنة التى تُبدو ساذجة ، وأصبح المهم هو ألا يقضى على شخص حامد .. ولكن المهم هو القضاء على اسمه الذى أصبح كالتميمة والسحر ، بل أصبح أخطر من كل بنادق جيشنا فقد كان الفلاحون يطلقونه على قواتنا أنى رأوها . واسم كهذا إذا اتفق قوم كهؤلاء على ترديده وإطلاقه على آذان قواتنا كل يوم وكل لحظة وبشكل مستمر ، يصبح أثره أقوى من الرصاص على معنوية قواتنا ، ولهذا فكثيرا ما كانوا يفقدون أعصابهم ويبكون أو يقتلون من يكون أمامهم من المصريين .. وكلما قتل واحد منهم قتلوا واحدا منا .

وغزا اسم السلطان حامد كل أنحاء الدلتا ، ثم دخل القاهرة وانتشر بين أهلها انتشارا جنونيا حتى أصبحوا فى حلقات الذكر يقولون بدل يا سلطان حامد « مدد يا سلطان » ثم غزا الاسم مصر العليا وتكونت فرق أولاد السلطان حامد فى كل مكان ، وتلفت أعصابنا يا صديقى من هذا

الاسم . كان العمال الذين أستخدمهم للحفر كلما تحدثوا لا يقولون إلا حامد ، وأحيانا كانوا يتكلمون بغيرها ولكنى لا أشك لحظة فى أنهم يقولون شيئا آخر غير حامد حامد حامد .

ووصلنا إلى مرحلة لم نعد نحتمل فيها سماع هذا الاسم بالمرة ، وكم استسخفت إيمانهم بحامد هذا .. كانوا فى نظرى كالأطفال حين يمسكون شيئا ، وكلما حاولت أخذه ازدادوا استمساكا به .

ولكن مهما كان استخفافى بهم وبإيمانهم فقد كنت أعجب بهم بينى وبين نفسى . فتصور ! كلمة واحدة مثل حامد حين تبنوها ، كلمة — مجرد كلمة — تحولت إلى قوة كبيرة مخيفة يا صديقى لمجرد أنهم آمنوا بها . إنهم عجيبون هؤلاء الناس فإيمانهم ليس عن اعتقاد وتفكير ولكنه عن حب . يحبون الشيء إلى درجة الإيمان وإن لديهم طاقة حب هائلة يا صديقى . إنهم من كثرة حبهم لبعضهم (رغم الشتائم التى حدثتك عنها) لديهم أنواع غريبة من القرابات .. فمحمد ابن خالة عمر . وإذا جاءت سيرة واحد أمام أحدهم وقال لك : إنه من نسائبنا فلا تظن أنه أخو زوجته بل يمكن أن تكون كل القرابة بينهما أن أحد بلدياته متزوج من بلدة الرجل الآخر . إنهم ليسوا شعبا .. إنهم كتلة . وكتلتهم كانت قد التفت تماما حول حامد حتى غدا الجنرال — مهما يكن الجنرال — قزما بجواره . وانظر ما حدث ..

من شهور قلائل تلقت قواتنا خبرا رقصت له فرحا .. أسعد خبر جاءها منذ أن غزت مصر .. فقد قتل حامد ! تصادف أن كان أحد ضباطنا الذين حضروا محاكمته يمر بداوريته فى السوق ولما رآه أطلق عليه النار فى الحال . ولولا أنه فر هو ودواريته فى إبان الارتباك الشديد الذى عم السوق .. لكانت الجماهير قد أكلتهم بأظافرها وأسنانها .

ولن أحدثك عن الغضب الجامح الذى رج مصر من أقصاها لأقصاها .. ولا نتيجة هذا الغضب . ويكفى أن كانت إحدى نتائج مصرعه أن حرقت قلعة شطانوف بكل ما فيها ، وثارت القاهرة للمرة الثانية ، وأعلن المماليك استقلال الصعيد ، وأصبح الوضع من الخطورة بمكان . وكثيرا مارأيت فى أحلامى أيامها أننا نذبح كلنا على قارعة الطريق .. كنا نحيا فوق قمة بركان نخاف أن يفتح فاه الضخم ويبتلعنا .

وما كادت قواتنا تتنفس الصعداء — رغم كل الاعتداءات التى حدثت — بعد مصرع حامد السلطان حتى جاءتنا أنباء لم نكن ننتظرها ، فالفلاحون لم ينقلوا حامد من المكان الذى لقى فيه مصرعه أبدا . ظل فى مكانه لا يمسه أحد ، وفى ظرف ثلاثة أيام كانوا قد بنوا فوقه ضريحا ذا قبة عالية .

والذى جن له كليبر أن الناس بدءوا يفدون لزيارة الضريح فى جموع لا يحصى لها عدد . تتوافد كل يوم وتلتقى حول الضريح كما تتجمع جيوش النمل حول كسرة الخبز . جن كليبر لأنه أدرك أن قتل السلطان حامد لم يغير شيئا . كل ما حدث بعد أن كان حامد اسما تتناقله الأفواه أن أصبح حقيقة لها مكان وفوقها قبة عالية . تصور حين يصبح الشخص بموته أكثر خطورة من كل ما كانه أثناء حياته . وتصور الجماهير الغفيرة حين تأتى من أماكن بعيدة ساحقة البعد فقط لتزور ضريح ميت ، حتى ولو كان قاتله أحد الفرنسيين ؟

ماذا كان حامد هذا قد فعل ليتجمعوا حوله بتلك الطريقة المذهلة ؟.. وهل لأنه قتل فرنسيا انتقاما لمصرع زميله الفلاح يرفعونه إلى درجة كبيرة من التقديس ؟

أم لأنه تحرك فى وقت كانت الناس فى حاجة لأن ترى فيه واحدا يتحرك كى تنطلق من عقالها وتندفع فى كل اتجاه ؟

قلت لأحد العمال الذين يعملون معى :

— هل تحب السلطان حامد ؟

— أحسن من أولادي ..

— هل أنت مستعد أن تموت من أجله ؟

— لا أموت مرة واحدة ، أموت مرات من أجله ..

— لماذا ..؟

— لماذا ؟! هذه مسألة لا يصح فيها السؤال .

— هل تعرف عنه شيئا ؟.

— كل ما أعلمه أننى مستعد أن أفديه بروحى .

— من هو السلطان حامد يا محمد ..؟

— يكفى أنه مات شهيدا ..

— ولا شىء غير هذا ؟.

— ولا شىء غير هذا ..

لقد جئنا نغزو هؤلاء القوم بتفوقنا . بمدافعنا ، وموسيقانا النحاسية ، ومطبعتنا ، وتفاعلات كيميانا ، ولكن أنى لنا بقدرتهم الخارقة على التكتل والحب والبقاء ؟ أنى لنا بإيمان كهذا ؟ أنى لنا بالقدرة على أن نكون أفرادا إذا أردنا ، وكتلة واحدة حين نريد ؟

ممكن أن نكون قد أدهشناهم بحضارتنا ، ولكن صدقنى لقد روعونى بحامدهم .

ومسكين جنرال كليبر .

فقد كانت أنباء زيارات الآلاف للضريح تقلقه وتجعله يكثر من ابتلاع سلفات المانيزيا ، وكل ما فعله بقتل السلطان أن أوجد أمام المصرين شيئا ملموسا يجتمعون حوله ويرددون اسمه فى صيحات صاخبة تجلجل تحت قبة السماء .

وكان أولاد السلطان حامد قائمين بنشاطهم الحاد على قدم وساق ، فكان الناس يقبلون لزيارة الضريح وهم لا يعرفون لماذا هم مقبلون ، ويعودون وهم لا يعرفون كل شيء عن الحرب التى دارت بينه وبين الكفرة ، وعن قتله غدرا ومصرعه ، وعن الانتقام .

ولم ينتظر كليبر حتى ينفجر البركان .. فقد هاجم الضريح بكل قواته وهدمه وانتزع الجثة من مكانها ولم تكد تمضى على وفاتها أيام ، وألقاها فى النيل .

وما كاد يستقر فى ثكناته حتى كانت الجثة قد استخرجت من الماء بطريقة غير معروفة ، وحتى كان قد اختير لدفنها مكان قرب الشاطئ ، وحتى كان قد بدئ فى بناء ضريح آخر فوقها . وفى أيام كانوا قد انتهوا من إقامة ضريح بدا أكثر ضخامة من الضريح الأول . وقبل أن يتم البناء كانت جماهير الفلاحين وسكان المدن عرفت مكانه وبدأت تفد بالآلاف المؤلفة إليه .

وقال كليبر لأركان حربه : إن عليهم أن يقضوا على هذه الخرافة قبل أن تقضى هى عليهم . وتشاوروا طويلا فيما يفعلونه .. ولو لم يكن كليبر كاثوليكيا لوافق على حرق الجثة . ولكنهم وجدوا حلا وسطا فى تقطيعها قطعا صغيرة وذرها فى أنحاء البلاد ، وليبحث المصريون حينئذ عن إلـٰه آخر يؤمنون به . أو خرافة أخرى يتمسكون بها ويتشبثون .

وفى الليل وكان لا يمكنهم تنفيذ شىء كهذا إلا تحت جنح الظلام ، تسلل الجيش الجمهورى إلى ضريح السلطان حامد وسرق الجثة وقطعها .. ووزعت على فرق مضت تبذرها فى طول البلاد وعرضها . ونام كليبر ليلتها أعمق نوم .

ولكى أكمل لك القصة لا بد أن أضيف أن كليبر نام نومه العميق ذاك لليلة واحدة فقط ، فقد بدأت الأنباء تترى بعد هذا بأن المصريين قد بدءوا يقيمون ضريحا فوق كل مكان سقطت فيه قطعة من جسد السلطان .

وبعد أن كانت مشكلة كليبر سلطان حامد واحد أصبح لديه الآن مئات السلاطين . كل سلطان منهم تفد إليه الآلاف المؤلفة من الجموع وتلتف حوله وترتج السماء بذكر اسمه ، ويتخذه أولاد السلطان مركزا للنشاط .

وهل تلومنى بعد هذا حين بدأ أمر السلطان حامد يشغلنى إلى درجة دفعتنى أن أستبدل ثيابى الأوروبية بثياب وطنية ، وأذهب لزيارة واحد من مئات الأضرحة المقامة له لأعرف سر هذا التعلق به ، وأعرف لمَ وقع اختيارهم عليه ليرفعوه إلى مصاف الآلهة .

لقد فعلت ذلك بالأمس إذ كان يوم الخميس يوم زيارة الضريح ، يوم يقبل الآلاف من أركان الأرض البعيدة وعليهم غبار الحقول ولفحة الشمس ليلتقوا عند صاحب المقام . وما أغرب ما رأيت .. ازدحام هائل وكأنه يوم الحشر ، ورجال كثيرون فى ثيابهم البيضاء المتسخة ، ونساء كثيرات فى أرديتهن السوداء ، وأنوار كثيرة .. أنوار المشاعل وأنوار الشوارع وأنوار لا تدرى مصدرها وكأنها تتولد من زحمة الناس ، ودفوف كثيرة

تضرب فينخلع لها القلب ، جباه يلمع فيها العرق ، وعيون غامضة متطلعة ، وأيدى تلوح ، وعشرات الآلاف من الحناجر تخرج عشرات الآلاف من النداءات المبحوحة المستغيثة الآمرة .. « يا سيدى حامد » كلمة واحدة مكونة من ملايين الكلمات الخارجة من الصدور المتضاغطة ، كلمة كبيرة ضخمة تتجمع فوق الضريح كسحابة مقدسة من موسيقى ضوئية راجفة تهتز وتنبسط على فرع الدفوف .

وأدركت أن ما تحت الضريح ليس هو المهم ، المهم هو الأجساد الخشنة الغليظة الملتفة حول الضريح ، المهم هو النداء الواحد الصادر من عشرات الآلاف من الأفواه الواسعة الجائعة ، المهم هو الوجه الآخر للوحش الخرافى الذى خلع قلوب جنودنا بضربة واحدة من يده ، المهم هو ماتفرزه هذه الجموع ويتصاعد منها ويتجمع ويتداخل ويتبلور ويختلط بأضواء المشاعل وأنوار الشوارع وقرعات الدفوف واهتزازات الأجسام .

لقد وقفت مشدوها يا صديقى وكأنى أرى هذا المزيج الهلامى المعلق بين الأرض والسماء ، كأنى أرى الإرادة المتجمعة ، كأنى أرى كل ما لدى الناس من حب وقد ضمته صرخة واحدة . كأن تلك الأجساد الخشنة الملوثة بالطين والتراب تفرز مادة أكثر سموا من الأجساد الحية ، أكثر سموا من الحياة .. خلاصة الحياة .. جماع كل ما هو قادر فيها وقاهر .. وجماع كل ما لا يمكن مقاومته ، القوة العليا الخارقة ، سر الحياة .

وضريح حامد كان هو البؤرة التى تتجمع حولها الإرادات وتلتقى فى بؤرة ترتكز الإرادة فى الخلود وتسويها لتصبح اكسيرا سحريا قادرا على

تحقيق الخلود . ماذا أقول ؟ لقد وقفت خاشعا واجفا أراقب الجموع وهى تفرز الإيمان ، تشترك فى خلقه لتعود تؤمن به ، ويتصاعد النداء الواحد من القلب الواحد فيصبح حين يلتقى بغيره مادة سامية حية تعود تنسكب فى كل قلب ، تطهره وتقويه وتغذى فيه روح البقاء .

لقد أحسست يا صديقى أنى أواجه القوى الخارقة . حقيقة أحسست بهذا .. أحسست به إلى درجة كادت تدفعنى لأنى أسجد لها وأطلب المغفرة ، أحسست بالاكسير ينسكب فى قلبى والنور الموسيقى الراجف يملأ صدرى ويمتزج بحناياى فأحس لأول مرة فى حياتى بعظمة الحياة وروعة أن نكون بشرا وآدميين نمتلك القدرة المعجزة ، قدرتنا على أن نتجمع ليصدر عن تجمعنا ما هو أسمى من حياة كل منا .

لن تدرك ما أعنى يا روان ، محال أن تدركه من غير أن تراه وتحسه ، ومشكلتى أنى رأيته وأحسسته .

أنا أكتب لك خطابى هذا من حجرة فى القلعة ومن خلال النافذة ألمح جنودنا يقومون بطوابير الصباح وينظفون البنادق ويستمعون إلى الأوامر ويتسلمون الذخيرة الجديدة ويزيتون المدافع ، وها هو البروجى يعزف نوبة الجنرال . وإنى أرثى لجنودنا وجنرالهم . ما فائدة البنادق والرصاص ؟ ألكى تخضع هؤلاء الناس بقتل بعضهم ؟ وما فائدة القتل فى قوم يحبون قتلاهم وموتاهم ؟ فى قوم يخلقون من الميت الواحد مئات الأحياء ويخلقون لكل حى بعد هذا آلاف الأولاد ؟

إنى خائف يا روان .. منذ الأمس وأنا أحس بقوى لا قبل لى بها تجذبنى إلى هذا الشعب وتهيب بى أن أعرف سره . وسوف أقول لنفسى إنها محاولة للدراسة ولكن لا تصدقنى فأنا لا أصدق نفسى . إنى أقاوم

بعنف . إن ثقافتى وتراثى وعقلى تمنعنى أن أنجذب إلى كتلهم حين تتجمع ولكنى لم أعد نفسى ، لقد غيرت ليلة الأمس أشياء كثيرة داخلى . إنى خائف أن تنتهى مقاومتى .. خائف أن أنسل اليوم أو غدا وأذهب إلى ضريح من مئات أضرحة السلطان حامد الفلاح المبتور البنصر الذى اشتركت فى مهزلة محاكمته ، خائف خوف الموت أن أفعل له مثلما كنت أفعل للعذراء فى الكنيسة عندنا فأضىء له شمعة وأضعها بجوار شمعات الفلاحين الفقراء لتنير قبره .

وصحيح أن شمعتى لن تكون شيئا بجوار ما يحظى به السلطان من تكريم وتقديس ، فما هى سوى شمعة واحدة .. شمعة من مئات الشموع التى أضاءت وستظل تضىء مئات أضرحته مئات الليالى ، ومن يدرى ربما مئات السنين !

ولكن لا تعجب إذا أقدمت على هذا اليوم أو غدا أو فى مساء قريب ، فإنى أحس بنفسى سائرا بلا إرادة إلى هذا المصير . أحس بمقاومتى تتلاشى وتنتهى .

النجدة يا روان !

الدكتور يوسف ادريس

(أ) مجموعات قصص قصيرة :

- ارخص ليالى
- جمهورية فرحات وقصة حب
- أليس كذلك
- البطـــل
- حادثة شـــرف
- آخـــر الدنيـــا
- لغـــة الآى آى
- النـــــداهة
- بيت من لحـــم
- أنا سلطان قانون الوجود
- اقتلهـــا

(ب) المسرحيـــات :

- ملك القطن وجمهورية فرحات
- اللحظة الحرجة
- الفـــرافير
- المهزلة الأرضية
- المخططين
- الجنس الثالث
- نحو مسرح عربى
- البهـــلوان

(جـ) روايات :

- الحــرام
- العيب
- رجال وثيران
- العسكرى الأسود
- البيضــاء
- بصراحة غير مطلقة
- اكتشــاف قارة
- مفكرة د. يوسف ادريس (جزء اول)
- مفكرة د. يوسف ادريس (جزء ثان)
- نيويورك ٨٠
- شــاهد عصره
- جبرتى الستينات

رقم الإيداع : ٥٢٦١
الترقيم الدولى : ٥ ــ ٤٧٠ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه